الحركة الطلّابيّة العربيّة في الجامعات الإسرائيليّة

والصدام بين جيل يوم الأرض والمؤسَّسة الحاكمة

أمير مخّول

أيلول 2020

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

الحركة الطلّابيّة العربيّة في الجامعات الإسرائيليّة
والصدام بين جيل يوم الأرض والمؤسَّسة الحاكمة
ورقة من وَحْي السرديّة الذاتيّة الجماعيّة
أمير مخّول

المحرر المسؤول: مهند مصطفى
تدقيق: حنا نور الحاج
مسؤولة الانتاج: إيناس خطيب
تصميم: أمل شوفاني

العنوان: همغينيم 90 حيفا
البريد الإلكتروني: mada@mada-research.org
رقم الهاتف: 04-8552035

يسعى هذا المقال لأن يشكّل إسهامًا في مراجعة تاريخ الحركة الطلّابيّة العربيّة في الجامعات الإسرائيليّة من بابَيْن: الأوّل هو تحليل لخلفيّتها ونشأتها والمؤثّرات الخارجيّة والبيئة التي عملت فيها، ونظرة المؤسّسة الإسرائيليّة السياسيّة والأكاديميّة إليها. والثاني هو سرد ذاتيّ من خلال تجربتي في تبوُّؤ موقع قياديّ بدايةً في رئاسة لجنة الطلّاب العرب في جامعة حيفا، ومن ثَمّ رئاسة الاتّحاد القُطريّ للطلّاب الجامعيّين العرب. كان ذاك في مرحلة صدامات كبرى بين جيل يوم الأرض، وجيل اليمين الفاشيّ الدمويّ الناشئ الذي تزامن نشوؤه مع المشروع الاستيطانيّ المتجدّد بعد احتلال العام 1967، ومع ظهور حركة "چوش إيمونيم".

ارتأيت أن أعتمد المراحل التي حدّدها مهنّد مصطفى في بحثه بشأن الحركة الطلّابيّة العربيّة،[1] مع التوقّف عند العَقْد الممتدّ بين العامَيْن 1975 وَ 1985 ضمن المراحل التي أشار اليها في أبحاثه. كذلك إنّ دراسةً مقارِنة لمراحل تطوُّر أو انحسار الحركة الطلّابيّة لا تخضع لمفهوم المفاضلة بين الأجيال أو المراحل، بل تخضع لمجْمَل التحوّلات الداخليّة والخارجيّة ذات الصلة.

تعتمد هذه الورقة على الذاكرة الشخصيّة، وعلى الأرشيف الشخصيّ الذي فقدتُ مع مرور الوقت جزءًا منه، ولا سيّما عند اعتقالي عام 2010، إذ جرى إتلاف عدد كبير من ملفّاتي خلال اقتحام قوّات الأمن لبيتي والتفتيش العنيف وتخريب المحتويات. كذلك تعتمد هذه الورقة على متابعتي المتواصلة للحركة الطلّابيّة وانتخاباتها وتفاعلاتها متابعةً مباشِرةً من خلال المساعي لتقريب وجهات النظر بين أطرافها، وفي توفير بنْية اتّحاد الجمعيّات الأهليّة العربيّة ("اتّجاه") -الذي كنت مؤسِّسه ومديره العامّ منذ عام 1996 حتّى الاعتقال (2010)- موقعًا متّفَقًا عليه بين أطرافها للتداول، وكذلك لفرز أصوات الانتخابات وللتباحث في شؤون تفعيل الهيئات وتطوير نظام الهيئات الداخليّ، حتّى إنّني تابعت من السجن هذا الموضوع القريب إلى اهتمامي وكتبت فيه إسهاماتي نحو تفعيلها.[2]

في الغالب، حين تجري مناقشة الحركة الطلّابيّة العربيّة في الجامعات الإسرائيليّة، سواء أكان ذاك على مستوى النقاش الطلّابيّ أو المؤسّساتيّ، أم على المستوى البحثيّ، يتمحور الموضوع فيها على أنّها شأن داخليّ عربيّ، دون إشارة والتفات كافيَيْن إلى كيفيّة تعامل الدولة ومؤسّساتها (بما فيها الأكاديميّة) معها ضمن رؤية هذه الدولة ومؤسّساتها لمجْمَل الفلسطينيّين العرب المواطنين فيها.

سأَعْمد إلى استخدام مفردات الحركة الطلّابيّة ذاتها، دون سعي إلى إضفاء مسمَّيات تأريخيّة وليدة اليوم؛ فقد كانت الأسماء التي سأُبقي عليها هي التالية: الحركة الطلّابيّة العربيّة، ولجنة الطلّاب العرب، واتّحاد لجان الطلّاب العرب ومن ثَمّ الاتّحاد القُطريّ للطلّاب الجامعيّين العرب.

كثافة في العمل وشُحٌّ في التوثيق

شكّلت الحركة الطلّابيّة العربيّة المنظّمة التجربةَ الوحيدة والإطار الوحيد لهيئات منتخَبة على أساس قوميّ ومباشَرةً من جمهورها، وهذا ما سيخصَّص له حيّز خاصّ للتوسّع فيه، ومسعى لسَبْر أغواره.

مقابل أهمّيّة وتميُّز هذا النموذج التمثيليّ، مقارنة بمختلف الهيئات الكيانيّة السابقة والحاليّة، فإنّ ما كُتب عن الحركة الطلّابيّة محدود، ولم يأتِ بشكل توثيقيّ أو سرديّ من قياداتها والشخوص الذين عايشوها في

1. مصطفى، مهنّد. (2002). **الحركة الطلّابيّة العربيّة الفلسطينيّة: دراسة نظريّة وتاريخيّة في جدليّة الجامعة والسياسة**. أمّ الفحم: مركز الدراسات المعاصرة.
مصطفى، مهنّد. (2015). "الحركة الطلّابيّة والنشاط الطلّابيّ الفلسطينيّ في إسرائيل". لدى: نديم، روحانا؛ وأريج، صبّاغ-خوري. (محرّران). **الفلسطينيّون في إسرائيل: قراءات في التاريخ، والسياسة، والمجتمع**. حيفا: مدى الكرمل. ص 389-399.
2. مخّول، أمير. (2011). الحركة الطلّابيّة والأفق الواسع. **عرب 48**.

العَقدين السابع والثامن من القرن الماضي، بل من خلال جهود بحثيّة لائقة، لكنّها عانت من شُحّ في المراجع والمصادر والوثائق؛ إذ إنّ أرشفة الحركة الطلّابيّة غير مجمّعة، وإنّما ثمّة أرشيفات شخصيّة.

على الرغم من إلمامي الواسع في هذا الشأن، فإنّ اكتمال الصورة بتفاصيلها يتطلّب استكتاب شخصيّات أخرى من قيادات طلّابيّة سابقة، وممّن عايشوا المراحل المختلفة منذ أواخر سنوات الخمسين وفي مختلف الجامعات.

روح العَقد المذكور

في العَقد الممتدّ بين العامَيْن 1975 وَ 1985، شهدت الجامعات الإسرائيليّة صدامًا مفتوحًا بين قوّتين نقيضتين صاعدتين هما: طلائعُ جيل يوم الأرض العربيّ الفلسطينيّ الشابّةُ، التي تعاظم عددها وحضورها في الجامعات،[3] وفي المقابل طلائعُ جيل اليمين الإسرائيليّ الدمويّ الخارج من صدمة حرب تشرين الأوّل عام 1973، والمنتعش من المشروع الاستيطانيّ الناشئ في المناطق المحتلّة في الضفّة والقدس والجولان وغزّة وشمال سيناء، ومن تبلور حركة "چوش إيمونيم" الدمويّة الاستيطانيّة حاملة عقيدة أرض إسرائيل الكاملة، التي عايشت الإطاحة بحكم حزب العمل وعلا شأنهم بوصول مناحيم بيچن إلى السلطة. إنّها مرحلة صدام بين جيل الـ 67 الإسرائيليّ المنتصر بقوّة الدولة، والجيل الفلسطينيّ التحرّريّ المقاوم الناشئ بقوّة الشعب؛ وقد شكّلت الجامعات الملتقى اليوميّ المباشر والنديّ بين القوّتين.

كانت المؤسّسة الأكاديميّة لا تزال تحت هيمنة تيّار العمل الصهيونيّ المأزوم والمهزوم (في حرب تشرين عام 1973، وفي انتخابات الكنيست عام 1977)، وغير المعترِف بهزيمته، والذي لم يتنازل عن ثقافته السياسيّة المهيمنة، والذي كان يتعامل مع العرب من باب الوصاية والتوجّه العدائيّ والاستعلائيّ العنصريّ، ومن باب الضبط والحيلولة دون تبلور وعي سياسيّ ولا تنظيم قوميّ. وهو الحزب ("مپاي" سابقًا) المسؤول عن بلورة سياسات الدولة الإقصائيّة.[4]

إضافة إلى ما ذُكر آنفًا، كانت هناك عوامل طلّابيّة وغير طلّابيّة، محلّيّة وعالميّة، ذات أثر مباشر وغير مباشر، أذكر منها حضور حركة "كامپوس" التي كانت نواتُها من طلّاب يهود يساريّين تزايد عددهم نتيجة ملاحقات الأنظمة العسكريّة الدمويّة الفاشيّة لهم في أوطانهم الأصليّة في أمريكا اللاتينيّة، ولا سيّما في الأرجنتين وتشيلي والبرازيل، لأنّهم كانوا في صفوف اليسار، في حين شهد العالم في تلك الحقبة ثورة الطلّاب العالميّة على النظام العالميّ وعلى العدوان الأمريكيّ على ڤيتنام، والتحوّلات في اليسار العالميّ وتعزُّز تيّارات اليسار الجديد والفوضويّة والثوريّة. لم تكن حركة كامپوس (للتفاعل السياسيّ والطلّابيّ) ذات وزن كبير عدديًّا، لكن حضورها تعاظَمَ بفضل اجتهادها الفكريّ والسياسيّ، ولتفاعلها العميق مع الطلّاب العرب، وبتحالفها الثابت مع لجنة الطلّاب العرب إلى أنّ تحوّلت إلى تنظيم يهوديّ عربيّ.[5]

في الحالة الفلسطينيّة (وهذا عامل عظيم الأثر)، الجيل العربيّ الفلسطينيّ الناشئ في الداخل تأثّر معنويًّا وسياسيًّا بالحالة الفلسطينيّة العامّة، ولا سيّما بفعل حالة النهضة العامّة التي تميّزت بتعاظُم حضور ودَوْر

3. أحد العوامل المركزيّة في هذه الزيادة كان مصادرة الأراضي والتغيُّرات التي أحدثتها في بنْية اقتصاد المجتمع الفلسطينيّ في الداخل، والذي أثّر على الاقتصاد المنزليّ والعائلة العربيّة، وهو ما أُطلِق عليه بَرْتَلة المجتمع العربيّ الفلسطينيّ في الداخل. انظر/ي:
Samed, Amal. (1976) .The proletarianization of Palestinian women in Israel. **Merip Reports**, (50). Pp. 10-26.

4. بويمل، يئير. (2007). **ظلّ أزرق أبيض: سياسة المؤسّسة الإسرائيليّة بين الفلسطينيّين في إسرائيل- السنوات المؤسّسة 1958-1966**. حيفا: دار النشر پرديس. (بالعبريّة)

5. چرينبيرج، ليف. (2019، 7 كانون الأوّل). وقد نجح الأمر مرّة: قصّة الشراكة اليهوديّة العربيّة في الجامعة العبريّة. **سيحاه مكوميت**. (بالعبريّة)

حركة التحرّر الوطنيّ الفلسطينيّ ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة (م ت ف)، وبوضع القضيّة الفلسطينيّة باعتزاز في صدارة القضايا العالميّة، وبكسبها اعترافًا وتضامنًا غير مسبوقَيْن. وهي حالة واكبتها نهضة تحرُّريّة سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة في أماكن تواجد الشعب الفلسطينيّ كافّة، وخلقت المجال للتفاعل بين نُخَبها في الجامعات الإسرائيليّة وفي الجامعات الفلسطينيّة (بير زيت والنجاح)، وكذلك أتاحت إمكانيّة الاطّلاع على الإصدارات والأدبيّات الفلسطينيّة ومنشورات ومجلّات منظّمة التحرير وفصائلها، وعلى شعر الثورة وأغانيها وثقافتها، وتزايد اهتمام "م.ت.ف" بالجماهير العربيّة في الداخل واعتمادها يوم الأرض يومًا للشعب الفلسطينيّ كلّه، والاهتمام المتزايد على مستوى الثورة الفلسطينيّة والعالم العربيّ بفلسطينيّي الـ48 وبالحركة الطلّابيّة الناشئة وما يميّزها من وعي قوميّ وما يَصدر عنها من مواقف، وما تقوم به من أنشطة تتحدّى فيها تحدّيًا مباشرًا المنظومةَ الإسرائيليّة.[6] في موازاة ذلك، شكّلت منابر الحزب الشيوعيّ[7] الثقافيّة والإعلاميّة والسياسيّة دفيئة لنشوء وتطوّر الأدب الفلسطينيّ والخطاب السياسيّ الفلسطينيّ، كما اعتَبرتْ حركةُ أبناء البلد في الجامعات نفسَها امتدادًا لحركة التحرُّر الفلسطينيّ ولفكر فصيل الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين مع خصوصيّة الموقعَيْن، وأنشأت مؤسّساتها الثقافيّة بهذه الروح.

ما ميّز تلك المرحلة النهضويّة أيضًا هو أنّها كانت حالة صاخبة من تفاعل مشترك في جميع أماكن وجود الشعب الفلسطينيّ، وكذلك على مستوى العالم العربيّ ونُخَبه الثقافيّة وإنتاجها المعرفيّ والفكريّ والثقافيّ، وموروث الروح القوميّة العربيّة.

الانتكاسة العربيّة في عام 1967، والاحتلال، وانتصار إسرائيل الكبير على الجيوش العربيّة، كلّها خلقت نقائضها معها؛ إذ أتاح الاحتلال وسيطرة إسرائيل على كلّ فلسطين، اللقاءَ المتجدّد بين جماهير الشعب الواحد بعد النكبة وتشتيته في العام 1948، بينما شكّل بالنسبة للأجيال الشابّة اللقاءَ الأوّل، وذلك أنّ الطلّاب العرب في تلك المرحلة هم جيل ما بعد عام 1948 وتبلوُر وعيهم بعد انتهاء الحكم العسكريّ. لقد حدث هذا اللقاء الأوّل في مرحلةٍ تعاظَمَ فيها النضال الفلسطينيّ والنهضة الفلسطينيّة التي كانا منحاها الاعتماد على الذات أوّلًا في معركة التحرير واستقلاليّة القرار الفلسطينيّ ونهضة النضال.

هذه المتغيّرات سوف تجد تعبيرًا عنها في الجدل السياسيّ الطلّابيّ العربيّ، وفي التنافس بين تيّارَيِ الحزب الشيوعيّ من خلال جبهة الطلّاب العرب، وأبناء البلد من خلال الحركة الوطنيّة التقدّميّة في الجامعات. مع التطرّق إلى امتدادات ذلك الجدل وإسهامه وأثره على مجْمل الخطاب السياسيّ بين الجماهير العربيّة في الداخل. وباعتقادي، ذاك كان النقاش السياسيّ والفكريّ الأكثر أثرًا طَوال سبعة عقود، وعلى مساحاته تبلور وعي أجيال. وكان لهذه التحوّلات والنقاشات وتفاعلها أثر بعيد المدى، حتّى في نشوء حركة ميثاق المساواة، ومن ثَمّ حزب التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، في ما بين أواخر الثمانينيّات وأواسط سنوات التسعين.

ثمّة عامل آخر أسهَمَ في التحاق الجيل الأوّل من الطلبة العرب بالجامعات الإسرائيليّة والجامعة العبريّة آنذاك، وبداية تشكُّل نواة لحركة طلّابيّة في أواخر الستّينيّات، يتمثّل في إنهاء الحكم العسكريّ واستعادة العرب الفلسطينيّين لحرّيّة الحركة والتنقّل. وللتذكير نشير أنّ جامعة حيفا لم تكن قائمة آنذاك، بل بدأت مسيرتها كفرع للجامعة العبريّة، ولم تحصل على استقلاليّة أكاديميّة إلّا في العام 1972. وقد تحوّلت خلال سنوات قليلة إلى أكبر تجمّع للطلبة العرب في الجامعات، بسبب موقعها الجغرافيّ، مع اختلاف في طبيعة التفاعلات الطلّابيّة؛ إذ إنّ طلبة الجامعة العبريّة أقاموا في غالبيّتهم في مساكن الطلبة، بينما قلّة قليلة من طلبة جامعة

6. نشرة طلّابيّة فلسطينيّة في تل أبيب. (1975، 10 كانون الأوّل). نشرة طلّابيّة فلسطينيّة في تل أبيب. مَتْشِبين، 75. (نقلًا عن مجلّة "الحرّيّة" اللبنانيّة، الصادرة في تاريخ 1975/06/16).

7. على سبيل المثال، صحيفة "الاتّحاد" والمجلّات: "الجديد"؛ "الغد"؛ "الدرب".

حيفا العرب أقاموا في منازل الطلبة، نتيجة لمحدوديّة عددها، ونتيجة للتمييز العنصريّ الممارَس في القبول للسكن فيها وجعل الأولويّة لمن أدّوا الخدمة العسكريّة، واستحداث الجامعة لمفهوم "الملاءَمة" الذي لم يكشفوا تفاصيله يومًا، لكنّه كان قرارًا للجنة المساكن الجامعيّة وجهازها الأمنيّ.

البنْية الكيانيّة للحركة الطلّابيّة والقيمة المضافة لدراستها

شكّلت الحركة الطلّابيّة العربيّة المنظّمة (أي الاتّحاد القُطريّ ولجان الطلّاب العرب) نموذج التنظيم القوميّ الذاتيّ الأكثر تطوُّرًا على مستوى الجماهير العربيّة في الداخل.[8] وهي تجربة فريدة أنتجت الكثير من المردود على عدّة مستويات: الخطاب السياسيّ، والتشكُّلات السياسيّة، والوعي الوطنيّ، كما أسهمت على نحوٍ جوهريّ في تزايد عدد الطلبة الجامعيّين العرب وفي كسر قيود التحاقهم بالجامعات، تلك القيود التي كانت من أكبر التحدّيات. على سبيل المثال، كان معهد الهندسة التطبيقيّة "التخنيون" يحدّد عدد الطلبة العرب الذين يلتحقون سنويًّا بكلّيّة الطبّ باثنين فقط، وفي وقت لاحق رفع المعدّل الدراسيّ للذين يخدمون في الجيش (أي اليهود) ضمن ما أطلق عليه "بونوس" (علاوة) بمعدل خمس نقاط أكاديميّة، ممّا جعل إمكانيّة تنافس الطلبة العرب على التفوّق الأكاديميّ شبه معدومة. في المقابل، قامت جامعة حيفا في النصف الثاني من السبعينيّات بفرض امتحان دخول بالعبريّة للطلبة "غير اليهود"، وعليه فرضت برنامج استكمال بالعبريّة للطلبة العرب إضافة إلى مهامّ السنة الأكاديميّة الأولى، واشترطت على الطالب الذي قُبِل للدراسة فيها اجتيازَ المستويات الثلاثة بالعبريّة كي يُقبل للدراسة في السنة التالية.

كذلك أدارت الحركة الطلّابيّة نضالًا مطوَّلًا وصعبًا في سبيل إلغاء مَهمّة الحراسة في الجامعات التي جرى استخدامها كأمر وملزم وكشرط لتلقّي المِنَح والمساكن (نقاط امتياز)، والتقدّم في الدراسة. وقد جرى استخدامها ابتغاءَ تبرير التمييز الممارَس ضدّ الطلبة العرب ومناصبة لَجْنتهم وهيئاتهم العداء. وعلى الرغم من الرفض المبدئيّ لها، لم تكن ثمّة حاجة أمنيّة فعليّة من قِبل الجامعات لاشتراطها، بل كانت هنالك حاجة سياسيّة؛ فالحراسة الفعليّة تجري من خلال موظّفين ورجال أمن ثابتين. الطلبة العرب لم يكن دَوْرهم سوى النظر في حقيبة الداخل إلى الجامعة، دون أيّة خلفيّة وأيّة دراية وأيّة صلاحيات. وبالطبع لم يدرِّبوا الطلبةَ العرب أمنيًّا، فالهدف كان سياسيًّا ملخَّصُهُ تطويع الإرادة وكسر اللجنة وحَمْلها على التراجع، فضلًا عن تبرير التمييز في المنَح والمساكن؛ وذلك أنّه لو اقتصر الأمر على المعايير الاقتصاديّة الاجتماعيّة لكان الطلبة العرب في مقدّمة المقبولين، وهو ما كان من شأنه أن يزيد التحاقهم بالجامعات، إذ لم تستطع كثير من العائلات تمويل دراسة أبنائها، ناهيك عن التقاليد الاجتماعيّة التي حالت في كثير من الحالات دون دراسة الفتيات في الجامعات (نقول هذا على الرغم من أنّ ما ميّز هذه المرحلة هو التحاقُ الطالبات الواسع بالجامعات، ودَوْرُهنّ الناشط والقياديّ في العمل الطلّابيّ العربيّ).

ما نراه اليوم من تدفّق نحو الستّين ألف طالبة وطالب عربيّ إلى الجامعات الإسرائيليّة هو إنجاز تراكميّ طلّابيّ وجماهيريّ في التطوّر وفي كسر الحواجز العنصريّة والإقصائيّة، وفي فتح أبواب الجامعات أمام التحاق الطلبة العرب، وهو ما كان دائمًا في صُلب أهداف الحركة الطلّابيّة وتنظيماتها، ليتضاعف العدد الكلّيّ في الجامعات من أربعة آلاف طالبة وطالب في بداية سنوات الثمانين إلى نحو ستّين ألفًا خلال أربعة عقود. ولو عدنا إلى بدايات تبلور الحركة الطلّابيّة في أواخر الخمسينيّات، فإنّ العدد ارتفع من بضع مئات إلى ما هو عليه اليوم.

8. بخلاف الجامعة العبريّة، حيث أُسّست لجنة الطلّاب العرب عام 1959/1958، تأسّست لجان الطلّاب العرب واتّحاد لجان الطلّاب العرب ومن ثَمّ الاتّحاد القُطْريّ للطلّاب العرب في سنوات السبعين الأولى في جامعات حيفا وتل أبيب وبئر السبع ومعهد الهندسة التطبيقيّة (التخنيون) وجامعة بار إيلان، وكذلك انتظمت فيما بعد لجنة للطلّاب العرب في معهد الهندسيّين التابع للتخنيون. بدأ الاتّحاد القُطْريّ للطلّاب العرب مسيرته بصفته اتّحاد لجان الطلّاب العرب. وفي نهاية السبعينيّات، جرى تغيير الدستور وتحوّل من اتّحاد لجان إلى اتّحاد يُنتخَب مباشرة من قِبل الطلبة العرب في الجامعات وبالتزامن معها في انتخابات فرديّة سرّيّة.

ما المقصود بالنموذج "الأكثر تطوّرًا"؟

ابتغاءَ التوضيح، نشير أنّ المقصود بمفهوم "الأكثر تطوّرًا" هو نموذج التنظيم وشكله، بعيدًا عن أيّة مفاضلة مع مؤسّسات أخرى، إذ إنّ نموذج التنظيم المجتمعيّ أو القطاعيّ يخضع لشروط حالة معيّنة. وعليه يأتي استخدام هذا المفهوم من باب الدلالة، ولأنّه يشكّل النموذج المنتخَب مباشرة من جمهور الهدف، ومرجعيّته المباشرة هي جمهور الهدف؛ فالحديث عن شكل تنظيم جمهور، لا عن تنظيم يعمل داخل جمهور. وتجدر الإشارة إلى أنّ "مؤتمر الجماهير العربيّة"، الذي حظرتْه الدولة عام 1980 بقرار حكوميّ إداريّ لحالات الطوارئ، كان من شأنه أن يؤدّي إلى انتخابات داخليّة، ولذلك فإنّ سقف المؤسّسات التمثيليّة محدود إلى حدّ كبير بمقتضى هذا الأمر.

لقد شكّلت الحركة الطلّابيّة المنظّمة (لجان الطلّاب العرب والاتّحاد القُطريّ للطلّاب الجامعيّين العرب) نموذجًا حداثويًّا لتنظيم تمثيليّ منتخَب على أساس قوميّ من حيث الجوهر، وعلى أساس سنويّ من حيث المسار، وضمن جمهور متغيّر باستمرار وبتسارع. وقد نتجت عن هذا النموذج تفاعلات لا يمكن أن تنتج في أيّ إطار منتخَب آخر؛ لا برلمانيّ ولا بلديّ ولا نقابيّ إسرائيليّ. هو شكل التنظيم المستقلّ ومؤسّسات الإدارة الذاتيّة المنتخَبة الوحيدة التي ظهرت في مسيرة الجماهير العربيّة الفلسطينيّة في الحالة الإسرائيليّة. كذلك شكّلت هذه الحركة نموذج التنظيم الديمقراطيّ المتطوّر للحالة الحداثويّة النهضويّة التي أتى بها جيل الشباب في مرحلة تحوُّلات كبرى.

إنّه نموذج لشكل التنظيم القوميّ الذي وُلِد في تماسّ مباشر ويوميّ، وصداميّ على وجه الخصوص، مع المؤسّسة الإسرائيليّة (الأكاديميا) وتحدّى بنْية القوّة فيها، مستلهمًا من روح التحوّلات البنيويّة والكفاحيّة التي عصفت بالجماهير العربيّة في مطلع السبعينيّات ولغاية الحدث المفصليّ الأكبر: يوم الأرض، وكذلك من الحالة الفلسطينيّة والعالميّة العامّة التي ذُكِرت من قبل.

علاوة على ما سبق ذكره، أظهر ذلك نوعيّةَ التفاعلات الوطنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة الممكنة فقط في تنظيم شبابيّ طلّابيّ منتخَب ويدير شؤونه بذاته ويبني كيانه؛ وذلك لأنّه في حيثيّاته وسيرورته وموقعه تحرَّرَ من البنى الاجتماعيّة التقليديّة المكبِّلة والمقيِّدة للنهضة، وتجلّى هذا في مفهوم الكلّ الفلسطينيّ، وفي المفهوم الاجتماعيّ، وفي دَوْر المرأة والبعد التقدّميّ. وشكّلت الحركة الطلّابيّة نموذجًا متقدّمًا في تعزيز المكانة القياديّة للمرأة العربيّة؛[9] ولأنّه طوّر علاقات ندّيّة مع الحالة الإسرائيليّة، سواء أكان ذاك في الصدام البنيويّ والمباشر معها، أَم في بناء تحالفات مع شرائح منها، وعلى وجه الخصوص تنظيم كامپوس (تنظيم للتفاعل السياسيّ الطلّابيّ)، وسبق ذلك حركة "يش"[10] اليساريّة، ولأنّه الحراك الذي خرجت منه غالبيّة قيادات جماهير شعبنا الحاليّة، أو ما يمكن أن يسمّى جيل يوم الأرض وما تلاه.

9. مخّول، أمير. (2005، 30 تشرين الثاني). المرأة وصنع القرار: الحركة الطلّابيّة كنموذج. **مفتاح: مفتاحك إلى فلسطين**.

10. ظهرت حركتان نقيضتان في جامعة حيفا وفي مرحلتين مختلفتين تحملان التسمية ذاتها: "يش"؛ الأولى يساريّة ظهرت في النصف الأوّل من السبعينيّات، وغالبيّة اليهود الذين انتسبوا إليها كانوا من اليسار من أصول أمريكيّة جنوبيّة. أمّا التنظيم الآخَر الذي يحمل الاسم ذاته، فظهر في العام الدراسيّ 1980/1979، وتسميته هي اختصار لِـ "إسرائيل لنا" ("يسرائيل شيلانو")؛ وهو تنظيم يمينيّ بممارسات دمويّة فاشيّة، كان قد دبّر وقاد الاعتداءات الكبرى على الطلبة العرب، والتي استعان فيها بعصابات إجراميّة إسرائيليّة وطلبة من جامعات مختلفة. وبلغ به الأمر محاولة اغتيال قيادات طلّابيّة عربيّة، على نحوِ ما حدث مع الطالبَيْن -إذّاك- عاطف عمري وبركات الحاجّ في مساكن الطلبة في التخنيون؛ إذ قام عدد من أفراد عصابات اليمين بتعطيل التيّار الكهربائيّ وهاجموهما بالسكاكين. كاهانا، مئير. (2015، 1 آذار). **شخصيّات صهيونيّة (18): شوكة في عيونكم**. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينيّة. ص 126.

تفاعُل الحركة الطلّابيّة بين الجماهير العربيّة

دراسة الحركة الطلّابيّة العربيّة المنظّمة تساعد في رؤية أمرين آخرين: الأوّل هو قراءة هذه الحركة في سياق المسيرة الكفاحيّة للجماهير العربيّة في الداخل، لا بمعزل عنها رغم تمايزاتها وإسهامها النوعيّ في تطويرها وتعزيز مكانتها. فعلى المستوى الرسميّ الجماهيريّ، شارك الطلبة العرب من خلال اتّحاد الطلّاب في صنع الأحداث الكبرى، كالتحضيرات ليوم الأرض (على سبيل المثال)، سواء أكان ذاك على صعيد الطلبة، أم على صعيد جماهيريّ، أم في عضويّة اللجنة القُطريّة للدفاع عن الأراضي، أم في الاجتماع الحاسم الذي انعقد في شفاعمرو عشيّة ذاك اليوم. علاوة على هذا، أسهمتْ في كلّ المناسبات والأحداث الكفاحيّة في الداخل وعلى مستوى الشعب الفلسطينيّ، وكانت من أوائل المؤسّسات التي رفعت شعار عودة اللاجئين والمهجَّرين، وسعت إلى تحويله إلى مشروع وتطبيقه على أرض الواقع في منتصف السبعينيّات. كذلك كان لاتّحاد الجامعيّين في الناصرة عام 1974 دَوْر بارز في إحداث التحوّل الكبير والانتصار على المؤسّسة الإسرائيليّة، والفوز برئاسة بلديّة الناصرة بقيادة توفيق زيّاد، وهذا انعكس في الجامعات وعلى مستوى جماهيريّ بالتزامن.

ولو قارنّا الدور النسائيّ في العمل الطلّابيّ العربيّ وهيئاته المنتخَبة بهيئات شعبنا الأخرى، لوجدنا فجوة جِدّيّة مقارَنةً بأيّة هيئة جماهيريّة قياديّة أخرى.

بنظرة تاريخيّة نجد أنّ الكثير من قيادات الجماهير العربيّة في الداخل أتت ضمن مساراتها من الحركة الطلّابيّة، سواء في ذلك القياداتُ على مستوى لجنة المتابعة والأحزاب والبرلمان والعمل البلديّ والأهليّ والنسويّ والحقوقيّ.

لا نجد نشاطًا جماهيريًّا أو مناسبة وطنيّة، إلّا كان للطلبة العرب حضور فاعل فيهما، من خلال المشاركة الفعّالة في الفعل الجماهيريّ نفسه، ومن خلال إقامة نشاط مُوازٍ في الجامعات. إضافة إلى هذا، كانت الحركة الطلّابيّة ممثَّلة في الهيئات الوطنيّة الجامعة كافّة، وكذلك اليوم، لكن على الرغم من وجود تمثيل لاتّحاد الطلّاب العرب في لجنة المتابعة لا حضورَ قويّ للصوت الطلّابيّ فيها؛ وهذا مَرَدُّهُ إلى وضعيّة الحركة الطلّابيّة المتعثّرة اليوم.

طبيعة الحملات التحريضيّة

الحملات الدمويّة على الطلبة العرب لم تنحصر في حالة الصدام داخل الجامعات، وذلك نظرًا لقوّة حضورها وأثرها. لقد شهدنا وعشنا حالات حدّدت فيها المؤسّسة واليمين هدفًا لهما يتمثّل في كسر الحركة الطلّابيّة العربيّة. وكان هذا أبعد من شعار "عَرَفِيم هَحُوتْسا" (العرب خارجًا) وَ "أشافْ هَبَايْتا" (أي: "م.ت.ف" إلى البيت)، وهذا الأخير كرّره الطلبة العرب بالكلمات نفسها بعد أن صرخ به اليهود، بمفهوم أنّنا نريد عودة "م.ت.ف" إلى فلسطين، ليصادره الطلبة العرب من اليمين.

حين عجز اليمين الإسرائيليّ الطلّابيّ المسيطر على منظّمات الطلّاب العامّة عن كسر عنفوان الطلّاب العرب، مدعومًا على نحوٍ مكشوف من أمن الجامعات ومن الحالة العدائيّة المسيطرة في البلاد، استعان بالتنظيمات الفاشيّة والعصابات من الشارع الإسرائيليّ ليجنّدها بالمئات مدجَّجة بالعصيّ والسكاكين والجنازير، بل كذلك بالسلاح الناريّ (لم يستخدموه لكن حملوه)، لتَحْضر إلى الجامعات لمباغتة الطلّاب العرب والاعتداء عليهم والتسبُّب في إصابات خطيرة، وكانوا يلاحقونهم حتّى في طريقهم إلى المستشفى لتلقّي العلاج. وقد حدث أن قام اتّحاد الطلبة الإسرائيليّ العامّ، بقيادة تساحي هَنِجْبي ويسرائيل كاتس، بتنظيم العصابات الطلّابيّة اليمينيّة وتوفير السفر المنظَّم لهم لنقلهم بالمئات من الجامعة العبريّة إلى جامعة حيفا أو من التخنيون إلى جامعة

حيفا -وكان ذاك أشبه بتجنيد عسكريّ- ليشاركوا في اعتداء مدبَّر على الطلبة العرب في أيّام كانت عاديّة دونما أيّة نشاطات طلّابيّة محدّدة للجنة الطلّاب العرب، ودونما جهوزيّة في هذا الصدد. وكان الغرض من أسلوب التجنيد هذا التمويه والإفلات من أيّة مسؤوليّة؛ إذ إنّ إدارة الجامعة ومحكمتها التأديبيّة تُحْصَر صلاحياتهما في معاقبة طلبة الجامعة فقط (سوف أتطرّق إلى هذا الموضوع لاحقًا)، في حين كان رجال أمن الجامعة يرافقون قوافل المعتدين دون تحريك أيّ ساكن، ودون استدعاء الشرطة حتّى لِـ "حماية الحرم الجامعيّ".

مثل هذا الأمر ما كان ليحصل حين تكون جهوزيّة الطلبة العرب عالية ولديهم نشاط، فكانت الجامعة تعجّ بالشرطة داخل الحرم، وبقوّات خاصّة على الخيول وحافلات الاعتقال وأخرى لتفريق المظاهرات. وإلى جانب الشرطة يقف الطلبةُ اليهود اليمينيّون ورجالُ أمن الجامعة.

كان اليمين الطلّابيّ مركّبًا من فئتين متمايزتين، ويمكن حين الحديث عن تلك الحقبة التمييز بين يمين إشكنازيّ؛ ويمين شرقيّ قادم من أطراف الدولة، وعلى وجه الخصوص من بين سكّان أحياء الفقر ("مَعْبَروت" سابقًا)، وما أُطلِقَ عليه وقتذاك بلدات التطوير (بالعبريّة: "عَيَرُوتْ پيتواح").

الفصيل الأوّل كان أفراده الأكثر عقائديّة والأكثر عنصريّة كعقيدة، وكانت لهم امتدادات في إدارة الجامعة الإشكنازيّة وجهاز الأمن فيها، وعملت قياداتهم في مكتب رئيس الحكومة وغيره من الوزارات، كما كانت لهم ارتباطات بمجموعات يمينيّة ذات منحًى عنصريّ فاشيّ دمويّ وعصابات إجرام.

الفصيل الثاني (الشرقيّون، أو مَن اصطُلِح على تسميتهم لاحقًا اليهود العرب)[11] كان أفراده أكثر حماسة في مواجهة الطلبة العرب وفي عدائيّتهم أحيانًا، وفي كراهيتهم للعرب التي كان من الممكن قراءتها على أنّها كانت سطحيّة لا عقائديّة، وكانت نتاج تحريض العقائديّين، ولأنّهم لم يريدوا أن يشبهوا العرب، وكانوا من أنصار مناحيم بيچن ومبجّليه، إذ اعتبروه مخلّصهم من عصر الإهانة والإذلال والفوقيّة الذي ميّز حزب العمل بمسمّياته المختلفة، والذي شكّل في نظرهم المؤسّسة الإشكنازيّة البيضاء ونُخَبها المهيمنة. وكان لديهم بُعد آخر هو النقمة على المؤسّسة التي بناها حزب العمل ("مپاي" سابقًا). وكان هذا التمايز مهمًّا في إحداث شرخ داخل اليمين لاحقًا وإضعافه. وعن كيفيّة تعامل لجنة الطلّاب العرب مع هذا التمايز والشرخ في اليمين، سيكون لنا حديث مفصَّل في مقال لاحق.

تعامل المنظومة الإسرائيليّة

ثمّة قيمة إضافيّة أخرى لدراسة الحركة الطلّابيّة، تتمثّل في أنّ هذه الدراسة تساعدنا في فهم المنظومة الإسرائيليّة، حيث شكّلت الجامعات نموذجًا مصغَّرًا وأكثر انكشافًا لمنظومة الضبط والسيطرة الإسرائيليّة، ولجوهر المؤسّسة العدائيّ، وفي المقابل لآفاق مواجهتها والتحرّر من هيمنتها.

نشأت الحركة الطلّابيّة العربيّة في واقع صدام مباشر ويوميّ مستدام شكّلت فيه عاملًا قويًّا ومؤثّرا ومستقطِبًا. وإذ تبلورت في هذا الواقع، فقد منحت روح الكيانيّة للطلبة العرب الذين تسارعت وتيرة التحاقهم بالجامعات، وشكّلت نوعًا من الإدارة الذاتيّة الطوعيّة وغير الرسميّة لجموعهم، بعد أن شكّلتْ هُويّةً جامعة لهذه الشريحة من المجتمع تتفاعل مع المؤسّسات السياسيّة والتمثيليّة القياديّة، وكذلك مع الأطر الشبابيّة والشعبيّة خارج الجامعات؛ فقد تبلورت قيمها وروحها على قيم التحدّي والعمل الوطنيّ والتقدّميّ، وعلى الثقة بالذات الجماعيّة، وعلى الانفتاح على كلّ صوت مؤيّد أو مساند لدورها وحقوقها وحقوق الشعب الفلسطينيّ يأتي من

11. شنهاف، يهودا. (2003). **اليهود العرب: قوميّة، دين وإثنيّة**. تل أبيب: عام عوفيد. (بالعبريّة)

الجانب اليهوديّ، سواء أكان ذاك من المحاضرين، أم من الطلبة اليهود، أم من شخصيّات في إدارات الجامعات، وكذلك كلّ صوت يأتي من الجمهور اليهوديّ في مناهضة الاحتلال والعنصريّة.

وفي هذا الصدد، طُوِّرتْ نماذج نقيضة لتوجّه المؤسّسة الصهيونيّة الحاكمة التي سعت إلى استحداث أُطُر يهوديّة عربيّة لتطويع الطلّاب العرب وإخراجهم من حلقة لجنتهم المستقلّة وانتمائهم الوطنيّ. فقد طَوَّرت هيئات الطلّاب العرب (الاتّحاد واللجان) هذه العلاقات مع أوساط يساريّة يهوديّة، وأخذتها إلى منحى مناهضة التهويد والعنصريّة والاحتلال. بالإضافة إلى تنظيم كامپوس، تأسّست لجنة التضامن مع جامعة بير زيت التي ساندت الطلبةَ وجامِعتَهم في النضال ضدّ الاحتلال ومداهماته للجامعة وإغلاقها، واستشهاد طلبة داخل الحرم الجامعيّ. وتُعتبر لجنة التضامن مع جامعة بير زيت من الحركات الشعبيّة ذات الحضور الأقوى آنذاك لمناهضة الاحتلال، كما شكّلت انفتاحًا متبادلًا داخل الشعب الفلسطينيّ بوضعيّاته المختلفة.

أثر الانفتاح على مُجْمَل الشعب الفلسطينيّ والاعتراف بجدارة دَور الحركة الطلّابيّة:

شكّل يوم الأرض الحدثَ المفصليّ الذي أفضى إلى الاعتراف الفلسطينيّ الواسع من خلال حركة التحرّر الوطنيّ "م.ت.ف" والاعتراف العربيّ والعالميّ بجدارة دَوْر الجماهير العربيّة في الداخل وقيادتها؛ وذلك أنّ جيل يوم الأرض الطلّابيّ قد لفت -خلال تأديته دَوْره في العَقد المذكور- نظرَ الشعبِ الفلسطينيّ كلّه، وحظِيَ باهتمام واسع بدوره هذا انعكس في عدّة مَناحٍ أذكر منها: الإكثار من النشر في الصحف والمجلّات المركزيّة الفلسطينيّة في لبنان بما يحدث على الساحة الطلّابيّة، وبخاصّة المجلّات الصادرة عن منظّمة التحرير وفصائلها والتي كانت تصل أحيانًا بنسخة واحدة أو بنُسَخ قليلة جدًّا ليجري تداولها بين الطلبة للقراءة والاطّلاع عليها، وكان ثمّة شغف معرفيّ ووطنيّ للحصول عليها (ولا سيّما المجلّات المركزيّة: "فلسطين الثورة"؛ "الهدف"؛ "الحرّيّة").

وبرز اهتمام الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة والاتّحاد العامّ للطلبة الفلسطينيّين في الشتات بدَوْر لجان واتّحاد الطلّاب العرب وخلق أواصر تواصل متبادلة، كما تأسّس صندوق القدس في واشنطن بالتعاون مع "م.ت.ف" الذي قدّم مِنَحًا دراسيّة لمئات الطلبة العرب المحتاجين ضمن سياسته في تشجيع التحاقهم بالتعليم العالي. وقدّم الصندوق ذاته مساعدات للجان الطلّاب العرب واتّحادهم القُطريّ، وقد كانت محدودة، لكن قيمتها المعنويّة كانت كبيرة. كذلك قام الصندوق -برئاسة الطيّب الذكر د. هشام شرّابي- بدعوة قيادة الاتّحاد القُطريّ للطلّاب العرب إلى اجتماعات الصندوق السنويّة، وإلى حلقات لبلورة أولويّاته في فلسطين وتجاه الفلسطينيّين، والتعاون مع اتّحاد الطلّاب في تسهيل إجراءات الصندوق والمِنَح.

أحد تجلّيات الاعتراف المذكور كان دعوة اتّحاد الطلّاب العرب للمشاركة في مؤتمر الأمم المتّحدة السنويّ لحقوق الشعب الفلسطينيّ غير القابلة للتأويل، والذي كان يُعقد في الغالب في جنيف. وكانت ثمّة لقاءات مباشرة تُعْقَد مع قيادات "م.ت.ف" المشارِكة في المؤتمر، وكان الأبرز من بينهم الطيّب الذكر شفيق الحوت الذي كان يهتمّ بالحركة الطلّابيّة على نحوٍ خاصّ.

على صعيد آخر، كان ثمّة حضور كبير لقيادات فلسطينيّة سياسيّة وطلّابيّة من الضفّة الغربيّة والقدس في أنشطة الحركة الطلّابيّة، من خلال تنظيم محاضرات وندوات وحلقات نقاش، وفي الانتخابات الطلّابيّة، وكذلك من خلال لقاءات ثقافيّة ورحلات متبادلة. وكان التنظيمان الطلّابيّان في لجنة الطلّاب العرب -جبهة الطلّاب العرب والحركة الوطنيّة التقدّميّة (أبناء البلد)- يقيمان علاقات ثابتة مع التنظيمات والفصائل الموازية وشخصيّات قياديّة من حركة التحرير الفلسطينيّ (فتح)، والجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، وحزب الشعب، والجبهة الدمقراطيّة لتحرير فلسطين، وأكاديميّين فلسطينيّين.

حرّيّة التعبير

لم تكن حرّيّة التعبير والحرّيّات الأكاديميّة المتّبَعة في الجامعات مفتوحة أمام الطلبة العرب كما لليهود، بل حُدِّدت بقيود، وقد جرى تعزيز القيود بأنظمة ردع سعيًا منها للحدّ من تعزيز دَوْر الطلّاب العرب. فقد انطلقت الجامعات من أنّ مضمون التعبير عند الطلّاب العرب سيكون معاديًا لها وللدولة وقيمها الصهيونيّة، وأنّ ما يحظى بالتسمية "حرّيّة تعبير" للطلبة اليهود يُدعى "شغبًا" إذا قام به الطلبة العرب.

إضافة إلى الهيئات البنيويّة (كمكتب عميد الطلبة -على سبيل المثال)، استحدثت جامعة حيفا عدّة مؤسّسات لضبط التعبير وإفراغه من جوهره. وبعد أن كانت حرّيّة التعبير ضمن الحرّيّات الأكاديميّة وأقرب إلى المطلقة، وبغية الحدّ من نشاط الحركة الطلّابيّة العربيّة، أقيمت هيئة أطلقوا عليها "منصّة الجامعة" (بالعبريّة: "بِيماتْ هَؤُونيڤيرسيتا")، وهي هيئة أعلى في صلاحياتها من مكتب عميد الطلبة ذي الطابع الإداريّ، وكان لها صلاحيات وضْعِ معايير ملزِمة ومقيِّدة لكلّ ما يندرج ضمن حرّيّة التعبير، والتصديقِ على طلبات القيام بأنشطة. وقد أضفى على الهيئة الجديدة طابعًا أكاديميًّا -لا إداريًّا فقط- تعيينُ محاضرين كبار في رئاستها. كذلك قامت باستحداث نظام تقديم الطلبات لتنظيم أيّ نشاط وكي لا تعترف بلجنة الطلّاب العرب؛ فإنّ من يوقّع على الطلبات هم ثلاثة طلبة حتّى ولو كانوا من اللجنة، لكن ليس بصفتهم التمثيليّة وهم يتحمّلون المسؤوليّة أمام سلطات الجامعة لدى حصول أيّ إخلال بالنظام وإنْ كان مصدره تعطيل اليمين الإسرائيليّ للنشاط وحتّى الاعتداء عليه، ليجري تقديم الموقّعين على طلب النشاط إلى المحكمة التأديبيّة ومعاقبتهم. وعلى الجملة، كانت تقف أمام المحكمة التأديبيّة شهادتان، واحدة للطلبة العرب وأخرى لجهاز أمن الجامعة، وكانت صيغة القرار في غالبيّة القرارات "نحن نثق بأقوال مسؤول الأمن" ويُحسَم الأمر بمعاقبة الطلبة العرب.

رأت لجنة الطلّاب العرب أنّ أيّ استحداث لأيّة هيئة في هذا الصدد ينطوي على تهديد لدَوْرها ولشرعيّة نشاطها، وأنّه مدخل لمواجهة جديدة كي تَحُول دون استخدام آليّات هذه الهيئة المستحدَثة. على سبيل المثال، دارَ صراع قويّ بشأن الصلاحيات المذكورة، وقد رفضت لجنة الطلّاب العرب رفضًا قاطعًا تقديم طلبات لتوزيع المناشير والبيانات في الجامعة، أو الحدّ من أمكنة توزيعها وحصرها في موقع واحد في الحرم الجامعيّ. وقد نجحت في ذلك، كما رفضت الانصياع لتقديم طلبات لإضرابات جلوس أو مظاهرات صامتة، وسعت إلى فرض واقع وقواعد رادعة تتيح لها حرّيّة الحركة بوتيرتها هي لا بوتيرة إدارة الجامعة، وراوحت هذه الصيغ بين مدّ وجزر، وعند الحاجة بلغت الأمور ذروتها عام 1977 بإغلاق الحرم الجامعيّ بأجساد الطلبة ولم ينجح أحد في دخوله أو الخروج منه.

في منحًى آخر، حين كانت لجنة الطلّاب العرب وتنظيم كامپوس ينظّمان محاضرات أو ندوات بالعبريّة لجميع الطلبة، كانت تُشْهَد احتجاجات ومقاطعات من قِبل اليمين الطلّابيّ للمتحدّثين أو المتحدّثات، وتَعتبر ذلك إدارةُ الجامعة وأمنُها حرّيّة تعبير واحتجاج، لكن حين كانت تنظَّم مظاهرة للراب مئير كهانا تتخلّلها تصريحاتٌ على غرار "العربيّ الجيّد هو العربيّ الميّت"، ودعواتٌ لطرد العرب وقتلهم، ويقاطعه الطلّاب العرب ويمنعونه من الترويج لخطابه الدمويّ، كانوا يقدَّمون للمحكمة التأديبيّة، وتَصدر ضدّهم قرارات بالإبعاد عن الدراسة.

إضافة إلى هذا، جرى استخدام المركز اليهوديّ العربيّ في مسعى لمحاصرة دَوْر لجنة الطلّاب العرب، وبخاصّة في الفترة التي فيها تولّى رئاسةَ هذا المركز البروفيسورُ أرنون سوفير المعروفُ بنظريّاته الديمچرافيّة العنصريّة وباعتباره العربَ -بمن فيهم أولئك الذين في الجامعة- خطرًا ديمچرافيًّا يهدِّد طابع الجامعة اليهوديّ، ويؤدّي إلى عزوف الطلبة اليهود عنها، وكان يفاخر بأنّه سعى إلى تأسيس كلّيّة الأمن القوميّ فيها، تلك الكلّيّة المخصَّصة لضبّاط الجيش وقوّات الأمن لتكون نقطة جذب للطلبة اليهود وتضفي طابعًا أكثر صهيونيّة على الجامعة.

فضلًا عن هذا، شهدَ تولّي البروفيسور يوسيف چينات رئاسة المركز اليهوديّ العربيّ مسعى لاستعادة الوصاية على الطلبة العرب وتنظيمهم. ويجدر بالإشارة أنّ چينات كان أشغل قبلها منصب مستشار الشؤون العربيّة في مكتب رئيس الحكومة، وتولّى مَهامَّ أمنيّة عليا في السفارة الإسرائيليّة في القاهرة، فضلًا عن قدراته الأكاديميّة في مجال الأنثروبولوجيا والتاريخ وتخصّصه في المجتمعات البدويّة.

في مراحل تالية، ولا سيّما في سنوات الألفين، ومع تراجع وزن الحركة الطلّابيّة، فُرضت قيود جديدة بلغت حدّ اشتراط إجراء انتخابات للجنة الطلّاب العرب بحضور الشرطة وعلى نفقتهم؛ وذلك بذريعة الحفاظ على النظام العامّ. وهذا دليل أنّ حرّيّة التعبير لم تكن متاحة إلّا بقدر قوّة الحركة الطلّابيّة المنظَّمة.

في السعي لتوسيع نطاق حرّيّة التعبير وتجاوز القيود -إلى حدّ كسرها-، دُفع ثمن غالٍ تَمثَّلَ بعشرات قرارات الإبعاد عن الدراسة والملاحقات السياسيّة البوليسيّة والاستخباراتيّة للقيادات الطلّابيّة.

مثل هذا حصل مع كاتب هذه السطور في العام 1980 حيث أُبعِد عن الدراسة، وتكرّرت الحالة خلال زيارة رئيس أركان الجيش رفائيل إيتان للجامعة إبّان العدوان على لبنان واحتلال بيروت وطرد قيادات "م.ت.ف" منها، وكذلك مع زيارة وزير الأمن الإسرائيليّ في ذاك العدوان أريئيل شارون، ليصل عدد المرّات التي قُدِّم فيها إلى المحكمة التأديبيّة 22 مرّة، إلى حدّ اتّخاذ قرار بمنع دخوله إلى الحرم الجامعيّ لا إبعاده عن الدراسة فحسب. وكان الكنيست قد شهد نقاشات صاخبة في هذا الشأن، وفي صدد الاعتداءات على الطلبة العرب، بادر إليها النائب السابق توفيق طوبي.[12]

من قَبيل المقارنة، وعلى سبيل المثال، لم يحدث في تاريخ الجامعات أن استدعت إداراتها الشرطة لقمع نشاط للطلبة اليهود، ولم يحصل في تاريخ الجامعات أن اعتدى رجال الأمن فيها أو الشرطة على طلبة يهود أو على نشاط ينظّمونه. لكن في المقابل، لا يكاد ينظَّم نشاط للطلبة العرب، آنذاك، ولم يحصل فيه انتهاك لممارسة حرّيّتهم في التعبير.

بالنسبة للطلبة العرب وهيئاتهم، شَكّل مفهومُ حرّيّة التعبير البيئةَ التي يرفعون فيها مَطالبهم، وهي مَطالب جماعيّة، في حين لم تكن ثمّة مَطالب جماعيّة للطلبة اليهود؛ فهم الغالبيّة وأصحاب السلطة، كما أنّهم كمجموعة لم يكونوا يومًا ضحايا تمييز عنصريّ أو إقصاء أو عدم اعتراف بشرعيّة مَطالبهم في الجامعات وخارجها، حيث الدولة تعرف نفسها كدولة يهوديّة ودولة اليهود ولم تكن يومًا غير ذلك.

لقد تبلورت وتطوّرت لجان الطلّاب العرب واتّحادهم القُطريّ تعبيرًا عن حاجة وعن وعي وعن ضرورة التنظيم وأدواته، في حين شكّلت حرّيّة التعبير بيئة النشاط الطلّابيّ ومساحة العمل والتأثير، وكذلك عبّرت عن المعادلة الدالّة على مدى قدرة الطلبة العرب وهيئاتهم على ممارسة حقوقهم، فضلًا عن السعي لتحصيل حقوقهم المهضومة، ولوقف التمييز البنيويّ والسياسيّ دون أن يدفعوا أثمانًا شخصيّة وجماعيّة نتيجة إجراءات تعسّفيّة بسبب سعيهم لنَيْل حقوقهم أو لحمايتها. أضف إلى كلّ هذا أنّ حرّيّة التعبير والحرّيّات الأكاديميّة شكّلت مساحة لإدارة النضالات المطلبيّة والاحتجاجيّة، ولاستراتيجيات المناورة التي تضمن تعاظم قوة الفعل الطلّابيّ.

لم تكن التقييدات المفروضة على حرّيّة التعبير لدى الطلبة العرب مجرّد موقف عنصريّ أو سياسة تمييز، بل كان منبعها من التخوّف أو الخوف من أن ينظّم المجتمعُ الفلسطينيُّ ذاتَهُ وأن ينقلب (وفي هذه الحالة الحركة الطلّابيّة العربيّة جزء منه) على منظومة الضبط والرقابة، وعلى رهبة السيادة. ذاك من الإجراءات القمعيّة التي ورثتها المؤسّسة المدنيّة -بما فيها الأكاديميّة- عن الحكم العسكريّ وهيمنة حزب مپاي التاريخيّة.

12. أقوال الكنيست. **جلسة رقم 68**. الكنيست الحادي عشر. 1985/03/11. (بالعبريّة)

كانت حرّيّة التعبير متاحة على نحوٍ شبه مطْلق للطلبة اليهود، وموصَدة في وجه الطلبة العرب. لكن لم تكن المفردتان "عرب" وَ "يهود" تُستخدمان ضمن التبرير، بل كانت الذريعةُ أنّ الجامعة تعترف بمنظّمة طلّاب عامّة واحدة لكلّ الطلبة، ولا تعترف بأيّة لجنة أخرى، ولا بلجنة الطلّاب العرب، وهذا أمر في صميم وجوهر سياسة الدولة؛ فقد تبنّت الجامعات إملاءات مكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة وخطابه، وكانت اللجنة السياسيّة لحزب مپاي[13] هي التي تحدّد هذه السياسات.[14] بَيْدَ أنّ قمع حرّيّة التعبير للطلبة العرب كان بنيويًّا والتفافيًّا، وهو من حيث النموذج فيه نقاط تشابه مع علاقة الدولة بالمؤسّسات القوميّة اليهوديّة في تطبيق سياساتها التمييزيّة والعنصريّة في مجالَي الأرض والمسكن. فقد اعتمدت إدارات الجامعات منظّمات الطلّاب العامّة ("أجودات هَسْتُودِنْتِيم")، وتلك أطر نقابيّة معترَف بها ولها ميزانيّاتها المقتطَعة من خلال هيمنتها على "تذكرة الطالب" ومَرافقها الاقتصاديّة والطلّابيّة في الجامعة وأنشطتها الواسعة. كما أنّ هذه المنظّمات، التي تشارك في اجتماعات مجلس أمناء الجامعات وتحديد السياسات باسم جميع الطلّاب، اتّسم طابعها الرسميّ بأنّه "لا_سياسيّ" (apolitical). وفي المفهوم الإسرائيليّ، اللا_سياسيّ قد يُفْهَم بغير الحزبيّ، وقد يُفْهَم بالعزوف عن السياسة والمواقف السياسيّة، لكن هذه المنظّمات العامّة كانت طَوال الوقت تحت قيادة أحزاب تتنافس عليها، ولا سيّما الحزبين الكبيرين آنذاك، حزب العمل وحزب الليكود، بتسمياتهما المختلفة، وكانت من أكثر الجهات المعنيّة في الجامعات بمنع أنشطة الطلبة العرب؛ إذ اعتبَرَ الخطابُ السائدُ -سواء أكان ذاك على صعيد إدارات الجامعات أم على صعيد منظّمات الطلّاب العامة- أنّ كلّ نشاط للجنة الطلّاب العرب هو نشاط سياسيّ، وإن كان ذلك طلبَ استخدام قاعة لاستضافة الطلّاب الثانويّين وإرشادهم في التسجيل للجامعة وإعدادهم للحياة الجامعيّة، في حين اعتبرت أنّ كلّ نشاط لمنظّمة الطلّاب العامّة هو طلّابيّ وإن كان استضافة مئير كهانا (عام 1980) أو رفائيل إيتان وأريئيل شارون، الذين حرّضوا مباشرة على الطلبة العرب وعلى الجماهير العربيّة والشعب الفلسطينيّ. إذا تظاهرتْ منظّمة الطلّاب العامّة ضدّ اتّفاقيّة كامپ ديڤيد وإخلاء المستوطنات الإسرائيليّة في شمال سيناء، اعتُبِر هذا "طلّابيًّا"، وإنْ تظاهر الطلبة العرب ضدّ الاحتلال وجرائمه فهذا "سياسيّ" يستحقّ منظِّموه العقاب التأديبيّ.

كيف عملت اللجنة التأديبيّة وآليّات الضبط الأخرى؟

طابع الجامعات الإسرائيليّة -حسب دساتيرها- أكاديميّ وبحثيّ من ناحية؛ وهي جديرة بهذا المفهوم حتّى ضمن المعايير الدوليّة لتصنيف الجامعات. ومن ناحية أخرى، اعتَبرت الجامعات رسالتها جزءًا من تطبيق المشروع الصهيونيّ؛ وهذا ما تدلّل عليه بنود "الأهداف" في دساتيرها وأنظمتها الداخليّة.

شكّلت اللجنة التأديبيّة مَحكمة إداريّة داخليّة تخضع لإدارة الجامعة وتُعنى رسميًّا بتطبيق سياسات الجامعة وبضبط التزام الطلبة بمعايير التعاقد بين الطالب والجامعة، وتقوم بمعاقبته جرّاء كلّ إخلال بتلك المعايير.

حرصت اللجنة التأديبيّة على أن تظهر بمظهر من يتبنّى "نزاهة الإجراء"، لكن الحقائق تفنّد ذلك الادّعاء ويُعتبر أمن الجامعة الطرف الأهمّ فيها. تدّعي اللجنة أنّها تتيح لكلّ طالب تقديم شكوى، لا إليها مباشرة بل إلى إدارة الجامعة، والطريق إلى الإدارة هو عميد الطلبة ويخضع الأمر للأمن. كما أنّ اللجنة التأديبيّة لا تملك صلاحية البتّ في شكاوى ضدّ إدارة الجامعة أو موظّفيها.

13. كانت اللجنة السياسيّة لحزب مپاي الهيئة المسؤولة عن وضع السياسات للحزب. هذا على المستوى الرسميّ، لكنّها فعليًّا كانت الهيئةَ التي بلورت سياسات الحكومة وأدارت سياسات الدولة في العَقدَيْن الأوّلَيْن من قيام إسرائيل، وبطبيعة الحال هي التي بلورت نهج الحكم العسكريّ ومُجْمَل السياسات تجاه الجماهير العربيّة.

14. أقوال الكنيست. جلسة رقم 58. الكنيست الحادي عشر. 1985/02/13. (بالعبريّة)

لكن من المفيد العودة إلى روح المؤسّسة الإسرائيليّة تاريخيًّا، لِما في الأمر من دلالات على سلوك الجامعات تجاه الطلبة العرب من خلال اللجان التأديبيّة وغيرها. فالانطباع العامّ هو أنّ الجامعات هي ذروة المفهوم المدنيّ للمؤسّسات، لكن الجوهر يخالف الانطباع.

باتّخاذ الدولة القرار بإنهاء الحكم العسكريّ، هي لم تلغِ جوهر أهدافه، في الضبط والسيطرة والتهويد، بل ألغته بوصفه جهازًا عسكريًّا، وحوّلت وظائفه إلى الأجهزة المدنيّة والأمنيّة دون العسكريّة. ولم تكن الجامعات حالة مستقلّة عن الحالة الإسرائيليّة، سواء أكان بأهدافها أم بسياساتها أم بارتباطها الوثيق بالمنظومة الحاكمة وبالأجهزة الأمنيّة في كلّ ما يخصّ علاقاتها بالطلبة العرب وحركتهم المنظّمة، ولا سيّما فكرة الهيمنة والضبط والرقابة. ومن الجدير بالإشارة أنّها كانت تتمتّع باستقلاليّة أكاديميّة تجاه الطلبة اليهود وتفاخر بالحرّيّات فيها.

ما كنّا شهدناه في قيادة الحركة الطلّابيّة إذّاك تؤكّده أبحاث عديدة اعتمدتْ وثائقَ سُمِح بنشرها من أرشيف الدولة بشأن التكامل في الأدوار وتقاسُم الوظائف بين "الدوائر الحاكمة اليهوديّة الحكوميّة والعامّة بهدف شلّ وتعطيل فاعليّة أيّ تنظيم عربيّ قوميّ [...] إنّ مكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة الذي أدار سجلًّا دقيقًا لكلّ طالب عربيّ سواء خلال دراسته أم بَعدها"،[15] كما أنّ ما كان يديره مكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة من سجلّات تفصيليّة عن كلّ طالب وطالبة بات من أدوار الاستخبارات العامّة في الجامعات وخارجها وقدراتها على التعقُّب.

هذا الأمر يعيد إلى ذاكرتي دائمًا مواظبة رجال الشاباك في جامعة حيفا وضابط أمن الجامعة المنسّق بنيويًّا مع جهاز الأمن العامّ للحصول على كلّ منشور أو بيان أو نشرة وكلّ قصاصة ورق باللغة العربيّة، حتّى الإعلانات المتعلّقة بالمساكن للإيجار، وبالطبع كلّ ما يَصْدر عن لجنة الطلّاب العرب والتنظيمات الطلّابيّة فيها وبأيّة لغة كانت. هؤلاء كانوا مزوَّدين دائمًا بكاميرات صغيرة لالتقاط صور الفعّاليّات والأنشطة، إضافة إلى المصوّر الخاصّ التابع للجامعة والذي رافقهم ومعه كاميرا كبيرة. وفي حالات المظاهرات أو المواجهات، كانوا يدأبون على الحصول على الملصقات والشعارات وكلّ ما يتناثر على أرض المكان.

ما كان يشغلنا في اللجنة والاتّحاد القُطريّ هو: إلى أين يأخذون "غنيمتهم"، وماذا يفعلون بها؟ بل لقد كنّا نتندّر أحيانًا زاعمين أنّ الشاباك وأمن الجامعة يوفّرون أفضل أرشيف للجنة الطلّاب العرب!

لكن ما كانوا يقومون به لم يكن محض صدفة، وإنّما له دلالاته ومنها: اعتبار الحركة الطلّابيّة العربيّة المنظَّمة معاديةً؛ اعتبار أنّ كلّ ما يُكتَب باللغة العربيّة مشكوك فيه؛ اعتبار أنّ اللغة العربيّة غيرُ شرعيّةٍ ومشبوهةٌ؛ إظهار حضورهم لردع الطلبة العرب -فضلًا عن التلويح الدائم باستخدام آليّة المحكمة التأديبيّة.

كانوا يتخوّفون من تضامن يهوديّ من محاضرين ومؤسّسات وأيّ تضامن دوليّ، ويسعون إلى تجاوزه من خلال حملات إعلاميّة تُظهر الجامعة بمظهر واحة التعايش، وكانوا يحسبون لذلك حسابًا خوفًا من أن يؤثّر على مصادر تمويلهم الخارجيّة -ومعظمها يهوديّة لبراليّة.

بَيْدَ أنّ هيئات الطلّاب العرب لم تكن مجرّد متلقّية للسياسات، بل كانت صانعة لسياساتها ومناهِضة فعّالة ومبادِرة لسياسات المؤسّسة الجامعيّة وعلى جميع المنابر المحلّيّة والدوليّة أيضًا، مع اعتمادها بالأساس على قوّة الحركة الطلّابيّة العربيّة. وكان واضحًا أنّه كلّما كانت لجنة الطلّاب والاتّحاد القُطريّ أقوى، كان التضامن من محاضرين وحتّى طلّاب يهود مع مطالب الطلّاب العرب أوسع. لقد كان ثمّة اعتراض مبدئيّ واسع لاستدعاءات الشرطة إلى الجامعة لقمع أنشطة الطلبة العرب، وكذلك لسياسات التضييق على حرّيّة التعبير باعتبارها جزءًا من الحرّيّات الأكاديميّة الأساسيّة.

15. بويمل، يئير. مصدر سابق. ص 355.

الأمر المعزّز الآخر هو أنّه كلّما كانت المواجَهات في الجامعات أكثر قسوة، كان الالتفاف الجماهيريّ والمسانَدة الجماهيريّة أكبر، لدرجة حضور متطوّعين في بعض الحالات إلى الحرم الجامعيّ لمساندة الطلّاب العرب في وجه العصابات العدائيّة للطلبة العرب؛ لكن الأهمّ كان الموقف السياسيّ الجماهيريّ المساند والداعم.

تنظيم كامپوس (للتفاعل السياسيّ الطلّابيّ)[16]

تفاوَتَ وزن تنظيم كامپوس بين جامعة وأخرى، وبين مرحلة وأخرى. وفي نظرة إلى تاريخ الحركة الطلّابيّة -وعلى وجه الخصوص فترة السبعينيّات- لن يكون من الإنصاف تجاهُل دَوْر هذا التنظيم، الحليف الثابت والشريك للجنة الطلّاب العرب في كلّ جامعة نشط فيها. وكانت جبهة الطلّاب العرب أكثر التنظيمات المعنيّة بوجوده، وذلك انسجامًا مع منطلق تيّار الجبهة والحزب الشيوعيّ بضرورة العمل اليهوديّ العربيّ في كلّ مواقع العمل السياسيّ. وكان تنظيم كامپوس حليفًا للجنة الطلّاب العرب، وشريكًا في نضالاتها وفي مسعاها لنيل الاعتراف الرسميّ بها، كما أنّ أعضاءه وعضواته قاموا بدَوْر نشيط وقياديّ في مناهضة الاحتلال، وقد رفض عدد كبير منهم الخدمة العسكريّة أو تنفيذ الأوامر الاحتلاليّة العسكريّة بحقّ الفلسطينيّين، ودفعوا ثمن مواقفهم بالسَّجن المتكرّر، وكذلك أدّوْا دورًا بارزًا في لجنة التضامن مع جامعة بير زيت (تلك اللجنة التي استحوذت على جزء هامّ من النضال ضدّ الاحتلال)، وشاركوا في المواجهات التي كانت تجري في الحرم الجامعيّ، ودفع بعضهم الثمن كما الطلبة العرب. بالإضافة إلى هذه الوقفات الميدانيّة، شكّل كامپوس نموذجًا للعلاقات النديّة مع زملائهم العرب، تلك النديّة المبنيّة على أنّ أصحاب الحقّ هم الذين يقرّرون بشأن شكل نضالهم، وعلى دعم الطلّاب العرب في التصدّي لكلّ نهج وصائيّ سلطويّ يسعى للنَّيْل من لجانهم واتّحادهم القُطريّ أو من حرّيّة التعبير. كذلك شكّل كامپوس، إلى جانب لجنة الطلّاب العرب، قوّةً وصوتًا موحّدًا في التأثير على مواقف المحاضرين وأطراف في إدارات الجامعات، وفي النداءات إلى المحافل الدوليّة عند الحاجة. وقد شكّل كامپوس النموذج النقيض لِما سعت إليه الدولة من خلال منظومتها (الحكم العسكريّ ولجنة السياسات في حزب مپاي الحاكم) في خلق نموذج بديل ومناهض لِـ "الحلقة اليهوديّة العربيّة" التي كان هدفها تعزيز وصايتها على العرب وتفريغ لجنتهم المنتخَبة من دَوْرها.[17]

عن التحكّم والضبط وتشجيع الاستجداء - مكتب رئيس الحكومة والطلبة العرب

تكشف الوثائق الصادرة عن أرشيف الدولة في العَقدَيْن الأوّلَيْن لقيامها عن مدى تدخّل مكتب رئيس الحكومة ومستشاره للشؤون العربيّة، وكذلك اللجنة السياسيّة في حزب مپاي الحاكم، في شؤون الجامعات، ولا سيّما في ما يخصّ الطلبة العرب وعلى نحوٍ تفصيليّ، على الرغم من قلّة عددهم في تلك المرحلة، وبخاصّة في مرحلة تأسيس لجنة الطلّاب العرب عام 1959. كذلك تشير هذه الوثائق إلى تشجيع سُدّة الحكم لرسائل الاستجداء لقبول طالب؛ وذاك -بنظرة تاريخيّة- إنجاز للحركة الطلّابيّة في القضاء على منظومة الإخضاع والإفساد هذه، وفي إدارة نضال عنيد وشاقّ لكسر المعوّقات البنيويّة العنصريّة. إنّ هذا التفصيل هو مؤشّر لمدى التدخّل الحكوميّ والحكم العسكريّ والحزب الحاكم في كلّ تحرُّك طلّابيّ عربيّ، ولتعقّب جميع الطلبة العرب.

ويخصّص يئير بويمل فصلًا كاملًا في كتابه "ظلّ أزرق أبيض" للحركة الطلّابيّة وللجنة الطلّاب العرب في

16. تسمية التنظيم بهذه المفردة هي من ناحية للإشارة إلى الحراك الجامعيّ (كامپوس)، لكنّها بالأساس مختصر (بالعبريّة) لتعريف التنظيم "مجموعة للتفاعل /للانخراط السياسيّ الطلّابيّ" (كْفُوتْسا لِمِعُورَفُوت پوليتيت أُسْتُودِنْتْياليت).

17. چرينبرچ، ليڤ. مصدر سابق.

الجامعة العبريّة في القدس، مسلِّطًا الضوء على كيفيّة تعامل إسرائيل مع التحاق طلبة عرب بالجامعة وكيفيّة التعامل مع لجنة الطلّاب العرب بكونها نقيض التوجّه الرسميّ الذي خصّص جهازَ الحكم العسكريّ لمنع أيّ تنظيم عربيّ قوميّ، وإنْ كان مواليًا للسلطة.[18]

سعت قيادة حزب مپاي إلى إيجاد السبل لتدارك أثر لجنة الطلّاب العرب في الجامعة العبريّة في القدس، وبخاصّة للحيلولة دون تحلّيها بطابع تمثيليّ رسميّ للطلبة العرب. وقد اتُّخِذ قرار بهذا الصدد عام 1962 أجمع عليه كلّ من مكتب رئيس الحكومة ومستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة ورئيس الاتّحاد العامّ للطلّاب ورئيس نقابة الطلّاب في الجامعة، وتضمّن القرار ثلاثة بنود: يتمثّل البند الأوّل في "وضعيّة لجنة الطلّاب العرب" والتعاطي معها كجسم سياسيّ (في تعابير الجامعات، "سياسيّ" معناه: "حزبيّ"). وبناء عليه، لا تترتّب على ذلك أيّة استحقاقات من قِبل نقابة الطلّاب وإدارة الجامعة. وهذا يعني أنّ لجنة الطلّاب العرب لا تحظى بأيّة صفة تمثيليّة، كما لا يجري أيّ تعاون مع لجنة الطلّاب أسوة بالتعامل مع التنظيمات الحزبيّة. وينصّ البند الثاني على ضمان تمثيل عربيّ في المؤسّسات الطلّابيّة (النقابة والاتّحاد العامّ) كبديل للجنة الطلّاب العرب: "ينبغي إيجاد طالب عربيّ لا يُعتبر عميلًا (كويزلينچ)"[19] لانتخابه في مجلس الطلبة العامّ، ويكون قادرًا على مواجهة ضغوط زملائه إن طالبوه بالاستقالة، في حين ينصّ البند الثالث على معالجة قضايا الطلّاب العرب مباشرة والحيلولة دون تدخّل لجنة الطلّاب العرب. وينبغي تعيين شخص يقوم "بالتطوّع" للعمل في اللجنة الثقافيّة في نقابة الطلّاب، ويقوم بالأساس بتركيز "دورة في العربيّة العامّيّة"، وبمتابعة قضايا الطلبة العرب. كما يجدر في العام القادم، وبقدر الإمكان، ضمّ هذا الشخص إلى لجنة السكن، ويتولّى مكتب رئيس الحكومة مَهَمّة تمويل "المتطوّع".

وأنيطت بهذا الشخص مَهَمّة التعقّب على مدار الساعة، وتقديم تقارير بأسماء كلّ الطلبة العرب وبتفاصيل عنهم (أ.م.). وقد اتّخذ مكتب مستشار رئيس الحكومة على عاتقه مَهَمّة التستّر على دَوره التخابريّ، إضافة إلى دعمه الماديّ وتمويله.

واعتمد مكتب رئيس الحكومة وإدارة الجامعة واتّحاد الطلّاب خطاب "اللا_تسييس" أو "اللا_حزبيّة" كمنظومة لقمع أيّ نشاط طلّابيّ لا يخضع لحزب مپاي ولا ينسجم مع روحه. وهذا يُعتبر ثقافة سائدة وقيّمة لا تزال تعتمدها المؤسّسة الأكاديميّة الإسرائيليّة في قمع الحركة الطلّابيّة العربيّة.

بنظرة استعراضيّة، نجد أنّ مفاهيم "العزوف عن السياسة" وَ "التطرّف" وَ "أعداء الدولة" وَ "الطابور الخامس" وَ "المخرّبين" كلّها مفاهيم أتت من مدرسة حزب مپاي الحاكم، وكان الهدف منها إلقاء مسؤوليّة وتبعات التمييز والإقصاء والعداء على سلوكيّات ضحاياهم العرب. وهي مفاهيم مؤاتية لسياسات الضبط والتطويع.

وفي مقارنة مع ما يجري في العَقدين الأخيرين، فإنّ جامعة حيفا -على سبيل المثال- درجت على استخدام المفاهيم ذاتها، وبمرور الزمن استحدثت مفاهيم أخرى تنفيذيّة، نحو "الخلايا الطلّابيّة" التي هدفها الوحيد هو تجاوز الاعتراف بلجنة الطلّاب العرب.

هذه المنظومة، المشكَّلة من الحزب الحاكم والمؤسّسة الحاكمة والمؤسّسة الأمنيّة الاستخباراتيّة وسلطات الجامعات والهيئات الطلّابيّة العامّة، واصلت دَورها دون انقطاع حتّى حين حدث انقلاب عام 1977 السلطويّ بصعود الليكود إلى الحكم. هي منظومة ذات صلة بما يسمّى "الدولة العميقة" لا بالحزب الحاكم فحسب، والدَّوْر المحوريّ فيها كان لجهاز الأمن العامّ الذي ورث عن الحكم العسكريّ إدارة شؤون العرب في البلاد. ولهذا

18. بويمل، يئير. مصدر سابق.

19. "كويزلينچ" مصطلح مصدره في الإشارة إلى عملاء النازيّة في أوروپا، نسبةً إلى رئيس وزراء الحكومة النرويجيّة الموالية للنازيّة آنذاك.

السبب أعتقد أنّه من المفيد، حين نراجع حالة التراجع التي ميّزت الحركة الطلّابيّة في العقود الثلاثة الأخيرة، أن نتطرّق إلى العوامل الذاتيّة؛ وخيرًا فعلتْ مجلّة "جدل" الإلكترونيّة، الصادرة عن مركز مدى الكرمل في عددها السادس والثلاثين (36)، إذ خصّصت صفحاتها لمقالات ذات شأن. لكن في المقابل، أرى أنّنا سنخطئ التشخيص إن لم نبحث في الإستراتيجيّات التي مارستها أجهزة الدولة والجامعات في تفريغ هيئات الطلّاب العرب من مضمونها ودورها التمثيليّ الكيانيّ النموذجيّ.

يحيلني هذا إلى سنوات الصدام العنيف المباشر والخطير. آنذاك، لم يحصل قَطّ أن كانت جهوزيّة الطلبة العرب عالية قُبَيْل أيّ نشاط، إلّا وصلت قوّات شرطيّة وأمنيّة بكامل العتاد لتفريق المظاهرات، وسيطرت على الحرم الجامعيّ. ولم يحصل قَطّ أن جرى اعتداء دمويّ مدبَّر على الطلبة العرب داخل الحرم الجامعيّ، إلّا غابت الشرطة والأمن الداخليّ وسلطات الجامعة، ليجري فيما بعد تقديمُ الطلبة العرب ضحايا الاعتداء إلى المحكمة التأديبيّة.

النضال الطلّابيّ في مواجهة القمع -جامعة حيفا نموذجًا

أرشيف أمير مخول

نصل إلى العاشر من آذار عام 1985، حين قرّرنا في لجنة الطلّاب العرب في جامعة حيفا والاتّحاد القُطريّ كسرَ كلّ قواعد اللعبة، والوقوفَ في وجه عبث اللجنة التأديبيّة بمصير قيادات الحركة الطلّابيّة. وإزاء إضراب جلوس واعتصام صامت داخل البناية الرئيسية،[20] اقتحمتْ مكانَ الإضراب قوّاتٌ كبيرة من الشرطة وأمن الجامعة والاستخبارات ونقابة الطلّاب العامّة، واعتدت بالهراوات والغاز على الطلبة المضربين داخل البناية الرئيسيّة ضدّ قرار التأديبيّة القاضي بإبعاد أمير مخّول وجعفر فرح عن الدراسة، وعندذاك لم يكن أمام الطلبة العرب إلّا الردّ الجسديّ الجماعيّ لردع عدوان الشرطة وتشكيل درع بشريّ كي لا تخترقه الشرطة المداهِمة بالهراوات. كردّ فعل على اعتداء الشرطة وعنفها غير المسبوق، جرى يومذاك تكسيرُ حاويات زجاجيّة كانت تُعرض فيها معروضات أثريّة، واستخدامُ ما فيها من محتويات أثريّة وكلّ ما تيسّر لردّ العدوان العنيف. لقد أسفر العدوان البوليسيّ الجامعيّ عن اعتقال سبعة عشر طالبًا عربيًّا، وجرى تمديد الاعتقالات إلى خمسة أسابيع. وتسبّب الأمر في إصابات بالغة لعدد من الطالبات والطلبة العرب، كانت إحداها إصابة خطيرة وإصابات متوسّطة وخفيفة حتّى في صفوف الشرطة وأمن الجامعة، وكذلك عُطّلت -نتيجة للمواجهات وصخبها- الدراسةُ في البناية الرئيسيّة في الجامعة إلى أن هدأت الأمور.

كانت هذه المواجهة حاسمة بمفهوم انكشاف المنظومة السلطويّة بكامل أطرافها (إدارة الجامعة؛ المركز اليهوديّ العربيّ؛ اللجنة التأديبيّة؛ أمن الجامعة؛ الشرطة؛ الشاباك؛ منظّمة الطلّاب العامّة)؛ فقد تحوّلت جميع المؤسّسات المذكورة إلى منظومة قمع واحدة للجنة الطلّاب العرب ولدَوْرها، بعد أن أخفقت سياسة استخدام

20. جرى الاعتصام في باحة الـ600 المشهورة في البناية الرئيسيّة التي شكّلت ساحةً للنشاط الطلّابيّ في الجامعة. وفيما بعد، بات عدد كبير من الطلبة اليهود والمحاضرين العنصريّين يطلقون عليها "ساحة فلسطين" أو "جامعة بير زيت"، وذلك لحضّ إدارة الجامعة على منع نشاطات الطلبة العرب فيها. ونزولًا عند ضغوطاتهم، أفرغت إدارة الجامعة الساحة من مقاعد الجلوس التي كان يستخدمها الطلبة، وحيثما كان يجلس الطلبة العرب كان الطلبة اليهود يبتعدون عن المكان، باستثناء أعضاء وعضوات تنظيم كامپوس.

المركز اليهوديّ العربيّ لتفريغها من دَوْرها.

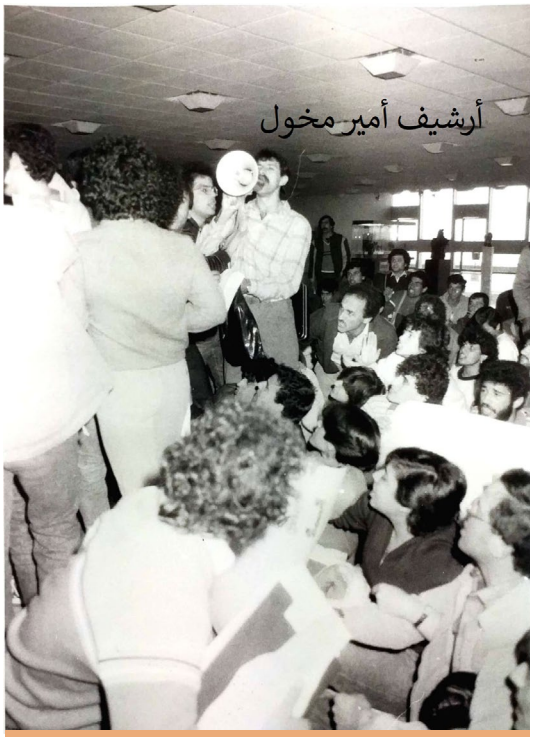
أرشيف أمير مخول

سعت لجنة الطلّاب العرب باستمرار إلى خدمة أهدافها بزيادة عدد الطلّاب العرب في الجامعات، وبتمثيل مصالحهم كممثّلة لهم واعتمدت شرعيّتها من خلال انتخابها ومصداقيّتها من خلال دَوْرها. وقد حدّدت مجالات دَوْرها في الجانب الطلّابيّ ومتابعة القضايا الفرديّة والجماعيّة للطلبة ذات الصلة بالسياسات، وكذلك خصّصت جهدًا خاصًّا بتجنيد مئات الطلبة لزيارة المدارس العربيّة وتقديم الشروح بشأن التسجيل للجامعات والحياة الجامعيّة ضمن هدفها بزيادة عدد الطلّاب الجامعيّين العرب وكسر القيود التي تحدّ دراستهم، واستضافتهم في الجامعات وتنظيم جولات إرشاديّة لهم وكذلك استقبالهم في اليوم المخصّص لتسجيل البرامج بعد القبول (وهو عمليّة مضنية جدًّا للطلبة الجدد)؛ وأدارت نضالات طويلة ومستنزِفة للكثير من الطاقات لإزالة العقبات التي كانت توضع في وجه الطلبة العرب (كامتحان الدخول بالعبريّة، وكبرنامج في اللغة العبريّة لطلبة السنة الأولى يُشترط استكماله (على حساب الطلبة) لترفُّعهم للسنة الثانية -على سبيل المثال)، وقضيّة التمييز الصارخ في السكن في منازل الطلبة من خلال إعطاء امتيازات لمن خدموا في الجيش وقوّات الأمن، وكذلك كانت تسعى للمساعدة في توفير دُور للإيجار للطلبة في مواجهة ظاهرة رفض أصحاب الشقق تأجير بيوتهم للعرب، وفي موضوع الحراسة كما ذُكِر.

علاوة على هذا، نجحت اللجان آنذاك في تحقيق اعترافات بالأعياد الدينيّة لدى الطوائف العربيّة واعتمادها في اعتبارها عطلةً مبرَّرةً معترَفًا بها في ما يتعلّق بالامتحانات؛ إضافة إلى النشر بالعربيّة من قِبل الجامعة.

أرشيف أمير مخول

أدارت لجنة الطلّاب العرب في التخنيون، مسانَدةً من الاتّحاد القُطريّ ولجان الطلّاب العرب الأخرى، معركةً بالغة الصعوبة لإبطال ما ذُكِر سالفًا بصدد منْح نقاط استحقاق في المعدّل الأكاديميّ لمن خدم في الجيش، وهي من النضالات الحاسمة التي لو لم تعطّل لحدَّتْ من إمكانيّة تنافس الطلبة العرب على التفوّق الأكاديميّ، وهو في أساسه تنافس قائم على فجوة مسبقة نتاج سياسات التمييز الممارَس ضدّ المدارس العربيّة.

شمل النشاط الثقافيّ والاجتماعيّ إصدار مجلّات ونشرات طلّابيّة وثقافيّة وسياسيّة واجتماعيّة،[21] وندوات وورشات نقاش، وكذلك تنظيم رحلات وزيارات تضامنيّة وجولات تعارف في الوطن وسيناء والجولان السوريّ

21. "المهماز"؛ "الشيخ مونّس"؛ "الفزّاعة"؛ "صدى الكرمل"؛ "صوت الكرمل"؛ "بير زيت"؛ "الكرباج"؛ "الجذور"؛ "الانطلاقة"؛ "طلائع الكرمل"؛ "عيون البصّة"، "النبراس" -ومعظمها صدرت في ما بين العامين 1975 وَ 1985.

المحتلّ والضفّة الغربيّة والقدس، وكذلك الحفلات والأمسيات الفنّيّة والوطنيّة والمشاركة الواسعة في فعّاليّات جماهيريّة.

انشغلت لجنة الطلّاب العرب في حيفا في المساعدة في توفير أماكن سكن في المدينة، وبذلت جهودًا كبيرة في حماية الطالبات والطلبة العرب المستأجِرين في الأحياء اليهوديّة. وفي مطلع الثمانينيّات، ونتيجة للواقع العنصريّ المنفلت والاعتداءات العنصريّة، تَحوّلَ هذا الدَّوْر إلى أولويّة عليا لهيئات الطلبة العرب. وقد تجلّت هذه المهامّ في جامعة حيفا نتيجة التمييز في معايير السكن في منازل الطلبة.

وفي سياق العمل الخدماتيّ، بات تقليدًا -منذ سنوات السبعين- أن تنتدب لجنةُ الطلّاب العرب والاتّحادُ القُطريّ المئاتِ من الناشطات والناشطين للذهاب إلى المدارس الثانويّة العربيّة وتقديم المحاضرات الإرشاديّة والسياسيّة لطلبة المدارس وحثّهم على الدراسة الجامعيّة وتوضيح آليّات التسجيل.[22] كذلك كانت كلّ لجنة طلّابيّة تُعِدّ كرّاسًا إرشاديًّا عن الجامعة التي تعمل فيها، وتوزّعه على طلبة المدارس الثانويّة وعلى الطلبة الجامعيّين الجدد. وكان مئات الطلبة يتطوّعون في إطار اللجنة في مساعدة المقبولين للدراسة في إعداد البرنامج الدراسيّ، وقد كانت هذه عمليّة يدويّة مضنية؛ إذ كان على الطالب الجديد (أو الطالبة) التوجُّهُ إلى مقرّات التسجيل لكلّ قسم على حِدة، والانتظارُ طويلًا حتّى إعداد البرنامج إذا توافرت أمكنة لكلّ دورة ومساق دراسيّ.

كان الجانب الطلّابيّ الخدماتيّ ذا أولويّة بحدّ ذاته، لأنّه يقع ضمن الدور الأساسيّ لدور الحركة الطلّابيّة المنظّمة، وكذلك لأنّ المساعي لتسديد ضربة سلطويّة من إدارة الجامعة واستخباراتها كانت تتأتّى من الجانب الخدماتيّ، أي توفير خدمات للطلبة العرب كي ينفضّوا عن اللجنة، والسعي إلى استخدام المحاججة "التاريخيّة" بأنّ اللجنة متطرّفة وتهتمّ بجامعة بير زيت وبالفلسطينيّين لا بالقضايا الطلّابيّة.

في تشخيص الحالة الراهنة: هل ثمّة أزمة بنيويّة أم تحوّل شامل؟

أخفقت الحركة الطلّابيّة العربيّة في تطوير بنْيتها لتستوعب حالة التعدّديّة التي اتّسعت منذ سنوات التسعين. ومفهوم الإخفاق لا يعني مسؤوليّة طرف بعينه ولا مسؤولية الطلبة. ما أفترضه هو أنّ الأحزاب المركزيّة غيّرت تعاملها مع التنظيمات الموازية لها في الجامعات، من تنظيمات ذات استقلاليّة نسبيّة إلى تنظيمات تابعة للأحزاب. لكن حتّى الأحزاب تغيَّرَ دَوْرها في ظلّ تنميط العمل السياسيّ العالميّ من خلال سطوة النيوليبراليّة، وهيمنة وسائل التواصل الاجتماعيّ، واتّساع الطبقة الوسطى، وهو ما كان له الأثر على مستوى تنظيم المجتمع الفلسطينيّ في الداخل.

في المقابل، النقاشات الطلّابيّة أصبحت تدار ضمن العلاقة بين الأحزاب. ومقابل سنوات السبعين حتّى الثمانين التي كانت تشهد نقاشات سياسيّة تفاعليّة، بل كذلك تنافسات وصراعات على مواقف متباينة، أصبحت اليوم التباينات بين الأحزاب ضبابيّة -بل ربّما معدومة.

الحركة الطلّابيّة، وكذلك الأحزاب والحركات السياسيّة، لم تطوّر مساحات عملها الرؤيويّ والفكريّ. ففي حين تتبنّى قوى التغيير في العالم أَجْنِدات حقيقيّة جديدة، أبعد من الحقوقيّة والهُويّاتيّة، فإنّ الحركة الطلّابيّة توقّفت عند الخطاب الهُويّاتيّ -وهو ضروريّ لكنّه ليس "العالَم الوحيد" (إن صحّ التعبير). فما يشغل اهتمامَ قوى التغيير

22. كان التسجيل للجامعات يدويًّا ومضنيًا، بدءًا بتعبئة رزمة النماذج بعد اقتنائها من الجامعة ومن ثَمّ إرسالها بالبريد، وكلّ ذلك مشروط باجتياز متطلّبات امتحانات الدخول والپسيخومتريّ، وفي الغالب دونما أيّة تجربة أو معرفة وافية عن الدراسة الجامعيّة وعن الحياة الجامعيّة والطلّابيّة. وكان دَوْر لجان الطلبة العرب حاسمًا ومصيريًّا في تسهيل شروط التسجيل والقبول ودمج الطلبة الجدد.

في العالم من قضايا التهديدات البيئيّة والاحتباس الحراريّ والمتغيّرات الخطيرة على الإنسانيّة جمعاء، بالإضافة إلى آليّات ومنظومات الرقابة المعولمة والمؤثّرة على النمط السلوكيّ، لا يشغل الحركةَ الطلّابيّة ولا الأحزاب السياسيّة كذلك. أضف إلى هذا أنّه لم تتبلور رؤية جماعيّة متكاملة في مواضيع مثل النيوليبراليّة والعَوْلَمة والتجارة الحرّة وقضايا الشعوب، وهي مجالات يجري التعاطي معها -لمواجهتها أو لإجراء تحسينات فيها- من خلال بنًى تنظيميّة مفتوحة على شاكلة المنتديات التي تحدّد قيمها وتتّسع لكلّ المعنيّين والمعنيّات. وهي أطر تفاعليّة مستقطِبة لأوسع القِطاعات المجتمعيّة أو الشبابيّة والطلّابيّة.

في موازاة ذلك، نحن بصدد تحوّلات عميقة وغير قابلة -باعتقادي- لثَنْي مسارها، وهي التغيُّرات في مفهوم الحزب السياسيّ ودَوْره الجماهيريّ وعلاقته بأعضائه وعضواته. ففي عصر وسائل التواصل الاجتماعيّ والتكنولوجيا العالية والتطوّر والذكاء الاصطناعيّ، تحتلّ هذه الأدوات والأنماط السلوكيّة الناتجة عنها مساحات واسعة من دَوْر الحزب السياسيّ ونمط السلوك السياسيّ. والمنحى المميِّز للعقود الثلاثة الأخيرة هو انتصار النموذج الأمريكيّ للحزب السياسيّ، وهو بتحديد دَوْر الحزب في إنجاح ممثِّليه، والتعاطي معه كمجموعات قوى لا كوحدة متماسكة، ولتصبح النجوميّة سيّدة الموقف في تحديد أنماط السلوك.

تسارُع تطوُّر وهيمنة منظومات الذكاء الاصطناعيّ والخوارزميّات من شأنه أن يجعل القوى المسيطرة على أنماط السلوك خفيّة وغير واضحة، بينما يزداد نفوذها. فالنمط السلوكيّ لم يعد وليد العلاقات المباشرة والإقناع الفرديّ، بل هو وليد قوى لا نراها إلّا بالوعي والإدراك والاجتهاد، سواء أكان ذاك في رؤيتنا للعالم أم في رؤيتنا لواقعنا المحلّيّ -وهذا يتطلّب وعيًا قائمًا على الإنتاج المعرفيّ.

لا أعتقد أنّه من بين ما يتضمّنه دَوْر الحركة الطلّابيّة مواجهةُ هذه التحوّلات أو استحداث الطرق للاستفادة منها أو العيش في ظلّها، لكن التحدّي الذي تفرضه على الحركة الطلّابيّة هو أن تكون واعية لها وأن تسعى إلى خلق علاقات تعاون وشراكات مع حركات طلّابيّة وقوى تغيير في العالم؛ فالتواصل الفلسطينيّ والعربيّ والعالميّ غَدَا مفروغًا منه، وهو مساحة تفاعُل عظيمة الأثر.

ثمّة تحدٍّ آخَرُ أمام الحركة الطلّابيّة، هو الحاجة إلى تطوير نموذجها التنظيميّ في ظلّ نجاح الجامعات -ولا سيّما جامعة حيفا حيث أكبر تجمُّع للطلبة العرب- في تفتيت وتشتيت بنْية النشاط الطلّابيّ العربيّ وضمور دَوْر لجنة الطلّاب العرب. وقد استخدمت إدارة الجامعة مفهوم "الخلايا الطلّابيّة"، وهو مفهوم غريب ودخيل على الحركة الطلّابيّة العربيّة، تقوم إدارة الجامعة بحسبه بالسعي لإفراغ أيّ نشاط من مضمونه من خلال تحديد مكان وتوقيت إقامته وإقصائه عن نواظر الطلّاب قدر الإمكان.[23]

في المقابل، الساحة الطلّابيّة -كما الشبابيّة- تشهد اتّساعًا لظاهرة "الحراك". وهي تجمُّعات طلّابيّة ذات توجُّه مشترك أو اهتمام مشترك. وهي حاضرة في الجامعات وعلى مستوى الشباب، وهي كذلك تفاعليّة في جوهرها، وذات بنية تنظيمية تختلف عن التنظيمات الطلّابيّة المعهودة.

وبالإمكان الإشارة إلى أنّ الحركة الطلّابيّة في سنوات السبعين والثمانين لم تنشغل في الإنتاج المعرفيّ الأكاديميّ كحركة، وذلك لقلّة عدد الطلبة والطالبات الذين واصلوا دراستهم للدرجات العليا، في حين أنّ الوضع اليوم مختلف تمامًا وبالإمكان الاستفادة جماعيًّا وفرديًّا من الطاقات والأعداد الكبيرة من الطلبة العرب الملتحقين بالدراسات العليا، وهذا يؤهّلهم أكاديميًّا وبحثيًّا للإسهام النوعيّ في الإنتاج المعرفيّ، سواءٌ أكان ذاك في العلوم الاجتماعيّة أم الأدبيّة أم العلوم الدقيقة. فضلًا عن هذا، ازداد عدد المحاضِرات والمحاضرين العرب على نحوٍ ملحوظ وبجدارة عالية.

23. زبيدات، علي. (2020). الأكاديميّة الإسرائيليّة والطلبة العرب. **جدل**، 36. ص 9-12.

النقاش على الدستور:

يكثر الحديث، في العَقد الأخير، بشأن دستور لجنة الطلّاب العرب والاتّحاد القُطريّ، ويجري التطرّق إلى أزمة الهيئات التي تشكّل نسبةُ المشاركة المتدنّية جدًّا في انتخاباتها المؤشّرَ الصارخ لهذه الأزمة، مقارنة بمراحل النهضة حين كانت المشارَكة تقارب المئة بالمئة، الأمر الذي يستحيل حصوله اليوم مع الكمّ الهائل من عدد الطلبة وتغيُّر الظروف، وقد يكون تغيُّر الحاجة إلى لجان طلّاب عرب بشكلها المتعارَف عليه.

النقاش حول الدستور هو مسألة هُويّة وروح الإطار قبل أن يكون تنظيم الإطار. التنظيم هو الغلاف أو الشكل الذي يتيح للإطار أن يمارس دَوْرَه على النحو الأفضل الممكن لتحقيق غاياته وأهدافه ضمن الحفاظ على روحه وهُويّته، وكذلك إنّ الدستور لا يبني أطرًا نهضويّة أو كفاحيّة أو جماهيريّة، بل هو (الدستور) نتاج بنائها ودَوْرها وروحها وتفاعُل مركّباتها. هكذا كان دستور الاتّحاد القُطريّ للطلّاب العرب الذي بدأ في السبعينيّات الأولى بصفته "اتّحاد لجان الطلّاب العرب"، أي إنّه مركَّب من اللجان في الجامعات والوزن الأكبر لرؤسائها، وبهذا المفهوم كان الاتّحاد إطارًا أقرب إلى التنسيقيّ بين رؤساء اللجان وأشبه بعلاقة لجنة المتابعة برؤساء الأحزاب.

بمرور الوقت، وحين غدت الانتخابات الفرديّة الاسميّة تأخذ منحى سياسيًّا تنظيميًّا لا فرديًّا، أصبحت تتناقض مع طموح الطلبة في التمثيل. والمقصود أنّ الانتخابات أخذت منحى التصويت لقوائم دون تسميتها بقوائم. وقد حدثت حالات جرى فيها انتخاب أحد عشر عضوًا وعضوةً للّجنة كلّهم ينتمون إلى حزب واحد، في حين أنّ المرشّحين والمرشّحات الآخرين حصلوا على صفر من المقاعد في اللجنة على الرغم من أنّه بلغت نسبة التصويت لهم أقلّ من نصف الأصوات بقليل. حينذاك جرت ملاءَمة الدساتير لهذا الواقع وتحوُّلها من انتخابات فرديّة إلى نسبيّة. هذه النتائج كانت تنعكس على النفوذ في اتّحاد اللجان انعكاسًا مباشرًا، دون أن تعكس التوازنات بين الطلبة.

تطوّرت الحاجة إلى إطارٍ جامعٍ يمثّل قضايا الطلبة العرب في كلّ الجامعات وعلى نحوٍ مباشر، ويعكس التوازنات بين الطلبة لا بين اللّجان فحسب، وإلى تشكيل رافعة إضافيّة للعمل الطلّابيّ وتنظيمه ككيان متكامل.

لكن العامل المباشر والجوهريّ أيضًا كان سياسيًّا وفي هُويّة الاتّحاد، أوّلًا ازدياد عدد الطلّاب العرب وثانيا تعاظم البنْية التنظيميّة للحركة الطلّابيّة والوعي لطبيعة الدَّوْر والتحدّيات لبلوغ أهدافها.

الدستور أوسع من أن يجري حصره في مسألة تنظيميّة، وإنّما هو يحدّد أهداف ورؤية وهُويّة الإطار أو المؤسّسة. النقاش الدستوريّ في مرحلة التعدّديّة انتقل إلى زاوية المستوى التنظيميّ فقط. وفي ذلك كان ثمّة ضياع لفرصة ليست مضمونة في إعادة بناء الحركة الطلّابيّة، كما أنّ دستور الاتّحاد كان ملائمًا للواقع التأسيسيّ وواقعِ ما قبل التعدّديّة أو الثنائيّة الحزبيّة في الجامعات (أي وجود قائمتين فقط).

اتّحاد الطلّاب العرب

مع تزايد عدد الطلبة العرب في كلّ الجامعات وقيام لجان محلّيّة، وتشابُه جوهر التحدّيات والطموحات والحاجة إلى تعزيز العمل الجماعيّ، شهدت سنوات السبعين إقامة اتّحاد لجان الطلّاب العرب. وفي أواخر ذاك العَقد وبداية عَقد الثمانينيّات، جرى الانتقال إلى مستوى تنظيميّ جديد هو الانتخاب المباشر للاتّحاد القُطريّ للطلّاب الجامعيّين العرب، ويجري انتخابه بالتزامن مع انتخاب لجان الطلّاب وضمن ذات العمليّة الانتخابيّة. ويتحدّد عدد مندوبي ومندوبات كلّ جامعة بعدد الطلبة العرب فيها، ليشكّل الإطارَ التمثيليَّ الجامعَ للطلّاب العرب ولوحدة الحركة الطلّابيّة.

كان الاتّحاد القُطريّ للطلّاب العرب في الجامعات يقود نضالات طلّابيّة وسياسةً كبرى جامعةً، لمواجهة قرارات تتعلّق بالقسط الدراسيّ ومعايير التمييز العنصريّ، بكسر القيود التمييزيّة أمام التحاق العرب بالجامعات والحماية المتبادلة للطلبة العرب في الجامعات المختلفة الذين كانوا يواجهون حملات عدائيّة منظّمة ومنسّقة بين أنصار الفاشيّة في جميع الجامعات وخارجها والمؤسّسة الرسميّة. وكان لاتّحاد الطلّاب العرب إسهامٌ كبير في ضمان سلامة انتخابات الحركة الطلّابيّة العربيّة في كلّ الجامعات، فضلًا عن دَوْره في رفع الصوت السياسيّ الجماعيّ للطلبة، سواء أكان ذاك ضمن صوت الجماهير العربيّة في الداخل، أَمْ على نحوٍ مستقلّ، في مناهضة الاحتلال والعنصريّة والتهويد وكلّ قضايا الشعب الفلسطينيّ.

وكان هذا الاتّحاد يقود العمل الوحدويّ للطلبة في مواجهة العنصريّة، وفي التضامن بين الطلّاب العرب ولجانهم في الجامعات، وفي مساندتهم في أيّة جامعة يتعرّضون فيها لملاحقات ومحاكم تأديبيّة واعتداءات دمويّة، علاوة على أنّه شكّل آليّة ضغط على إدارات الجامعات التي تلمّست أنّ قضيّة الطلبة العرب في كلّ جامعة هي شأنهم في كلّ الجامعات (ممّا عزّز قوّة اللجان في الجامعات وفي ما بين الجماهير)، ووحّد صوت الطلبة العرب.

كان الاتّحاد القُطريّ يقوم بمراقبة سير انتخابات الهيئات الطلّابيّة العربيّة في الجامعات. وكان ينشط على نحوٍ خاصّ في تنظيم وتنسيق الفعّاليّات السياسيّة الجماعيّة، كالتضامن مع جامعة بير زيت وجامعات الضفّة الغربيّة التي كانت عرضة لاقتحامات الاحتلال وإغلاقاته، وفي ردود فعل ومواجهات دمويّة في أعقاب محاولة اغتيال التنظيم الإرهابيّ اليهوديّ لرؤساء البلديّات في الضفّة (بسّام الشكعة -نابلس؛ كريم خلف -رام الله؛ فهد القواسمي -الخليل)، وكذلك مظاهرات ضدّ الاستيطان والعنصريّة والمشارَكة في نشاطات جماهير شعبنا في الأحداث الوطنيّة، ولا سيّما في إحياء ذكرى يوم الأرض. وسبق أن كان اتّحاد الطلّاب العرب شريكًا في إقرار إضراب يوم الأرض عام 1976 وفي لجنة الدفاع عن الأراضي.

نظرة إلى الوراء من أجل خطوة إلى الأمام

بخلاف الثنائيّة الحزبيّة والتيّاراتيّة التي ميّزت العَقد المذكور، شهدت نهاية الثمانينيّات بداية نشوء تعدُّديّة حزبيّة على الساحة الطلّابيّة، وذلك بمساعي الحركة التقدّميّة لدخول معترك العمل الطلّابيّ والتنافس على لجان الطلّاب العرب. ونظرًا لعدم حصولها على حيّز واسع من التأييد الطلّابيّ وقلّة أثرها وقِصر الفترة التي نشطت فيها الحركة سياسيًّا، والتي لم تدم أكثر من عشر سنوات، لم يترك حضورها الطلّابيّ أثرًا ملموسًا ولم يخلق حاجة إلى ملاءَمة دساتير اللجان والاتّحاد القُطريّ لمرحلة التعدّديّة.

في سنوات التسعين الأولى، ظهرت الحركة الإسلاميّة وتنظيماها الطلّابيّان: "اقرأ" (الحركة الإسلاميّة الشماليّة)، وَ "القلم" (الجنوبيّة). وكان الوزن الأكبر لتنظيم "اقرأ" الذي تبوّأ رئاسة اللجنة في جامعة حيفا لبضع سنوات. التنظيم الآخر الذي ظهر حضوره في النصف الثاني من التسعينيّات هو التجمّع الطلّابيّ الديمقراطيّ، وهو التنظيم الطلّابيّ

للتجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ. وشهدت المراحل المذكورة ضمورَ قوّة الحركة الوطنيّة التقدّميّة (أبناء البلد) وتراجُعَ ملموسيّة حضورها، وهو مسار بدأ في سنوات الثمانين لكنّه تسارَعَ لاحقًا. ومع القرار الحكوميّ الإسرائيليّ الترهيبيّ بحظر الحركة الإسلاميّة (2015/11/17)، حُظرت كلّ المؤسّسات المنبثقة عنها بما فيها تنظيم "اقرأ".[24]

تجدر الإشارة إلى تجربة تنظيم "جفرا" في جامعة تل أبيب، التنظيم الذي سعى في التسعينيّات إلى تقديم نموذج نهضويّ يسعى إلى استنهاض الحركة الطلّابيّة، لكن لا يبدو أنّه تحوّل إلى نموذج متّبَع في الجامعات، وهذا لا يقلّل من أهمّيّة التجربة واعتمادها على الحراكات الطلّابيّة.

لقد رافقتُ التيّارات المركزيّة الثلاثة في التسعينيّات وسنوات الألفين الأولى -"جبهة الطلّاب"؛ "التجمّع الطلّابيّ"؛ "اقرأ"- في مساعيها إلى إيجاد قاسم مشترك يتيح تفعيل اللجان. وفي رأيي، عدم التوافق بشأن استنهاض الحالة لم يكن محصورًا في نوايا الأطراف ورؤيتها، بل يتخطّاه إلى التغيّر الكبير في طبيعة بيئة العمل، بما فيها البيئة السياسيّة والاجتماعيّة والطلّابيّة وأدوات التفاعل.

الحركة الطلّابيّة مرتبطة أيضًا بمراحل تطوّر المؤسّسات وأشكالها، وبالتراجع كذلك في الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة والعالميّة، وبالبنْية الاجتماعيّة الاقتصاديّة، وبطبيعة السوق وآفاق العمل والرغبة المسبقة في التقدّم لدراسات عليا. كلّ هذه عوامل مؤثّرة في السلوك وفي تحديد معايير الدَّوْر الطلّابيّ، وهي لا تقاس بالإيجاب أو بالسلب، وإنّما أذكرها من باب التوصيف. كذلك إنّ العزوف الشبابيّ عن الأحزاب، وعن روح العطاء الجماعيّ، هو مؤشّر لمستوى التحدّي، وهو محفّز للتفكير الثاقب على نحوِ ما يشير خلايلة وجرايسي في مقالهما عن الحركة الطلّابيّة.[25] أضف إلى ما أسلفنا أنّ هذا المنحى ليس ثابتًا بالضرورة، وقد تَحدث تحوّلات، وهنا يكون التحدّي أمام الحركة الطلّابيّة في قراءة مؤشّراتها والتعاطي معها إن أرادت.

ما يميّز أُطُر النشاط الطلّابيّ هو التنظيمات الحزبيّة وأنواع وأشكال الحراك المختلفة، وهي -على ما يبدو- حالة ثابتة من الفعل الشبابيّ والطلّابيّ؛ وهذا له انعكاسه في شكل التنظيم الملائم للحركة الطلّابيّة العربيّة. ذاك ما يؤكّده ربيع عيد في الحاجة إلى عدم حصر عمليّة إعادة البناء بين الأحزاب، بل يشير إلى القوى والشرائح الواسعة غير المنضوية تحتها.[26]

قرار استعادة دَوْر الحركة الطلّابيّة كأطر منتخبة يعود بالأساس إلى الطلّاب وإلى الأطر التنظيميّة التي تنتمي إليها شرائح واسعة، ولا سيّما الأطر الحزبيّة، مع الإشارة إلى أنّ ما يسمّى "المستقلّين" ليسوا تيّارًا، بل هم خارج الأطر أو التيّارات، مع التأكيد أنّ الحركة الطلّابيّة هي شأن كلّ طالبة وكلّ طالب وكلّ حراك وكلّ اجتهاد وكلّ مجموعة معنيّة بتنظيم ذاتها والتأثير في الصالح العامّ الجماعيّ.

ما لا يبدو واقعيًّا في المرحلة الحاليّة هو ضمان مشاركة جموع الطلّاب العرب في انتخاب هيئاتهم. إن كان لن يحدث هذا، فثمّة مشكلة شرعيّة للمؤسّسات. وعلى العكس من المؤسّسات الرسميّة المنتخَبة، فإنّ مجموعة قوميّة مضطهَدة لا تستطيع أن تبني مرجعيّتها من خلال مشاركة أقلّيّة فيها لا أكثر، لكنّها تستطيع الاستعاضة عن ذلك بتطوير شكل الإطار ليتّسع لعدّة أشكال من التنظيمات المنبثقة عن واقع التعدّديّة الطلّابيّة السياسيّة والاجتماعيّة، وانطلاقًا من الواقع البنيويّ الجديد في الجامعات الذي حصر النشاط الطلّابيّ في "خلايا طلّابيّة" إلى أن يوسَّع حيّز العمل من خلال النشاط والنضال الطلّابيَّيْن.

إنّ ما من شأنه أن يتيح المجال لإطلاق حالة نهضة متجدّدة هو إطلاق العِنان للحِوارات والنقاشات الطلّابيّة بأفق رؤيويّ، علّها تؤتي كلّها بمردود تخلقه التجارب المتراكمة وخيالات الأجيال الواعدة.

24. جبارين، يحيى. (2015، 17 تشرين الثاني). حظر الحركة الإسلاميّة وَ 17 مؤسّسة تابعة لها. **عرب 48**.

25. خلايلة، محمّد؛ وجرايسي، عماد. (2020). الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في الجامعات الإسرائيليّة: أزمة تنظيميّة أم سياسيّة؟. **جدل**، 36. ص 44-52.

26. عيد، ربيع. (2020). عن حركة طلّابيّة كان لديها لجنة للطلّاب العرب. **جدل**، 36. ص 53-57.